الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم -

كلية الأدب العربي والفنون

قسم اللغة العربية وآدابها

مذكرة التخرج لنيل شهادة الماستر في اللغة العربية و آدابها

تخصص أدب عربي قديم

بعنوان :

أدب الرحلة عند الأندلسيين و المغاربة

(رحلة العبدري وأبي حامد الغرناطي)

إعداد الطلبة :

- بوعلي سفيان

- بومهد حنان

إشراف الأستاذ :

د. بوزيد نجاة

أستاذة محاضرة أ

كلية الأدب و الفنون

جامعة مستغانم

السنة الجامعية : 1442هـ/1443هـ -2021 م /2022 م

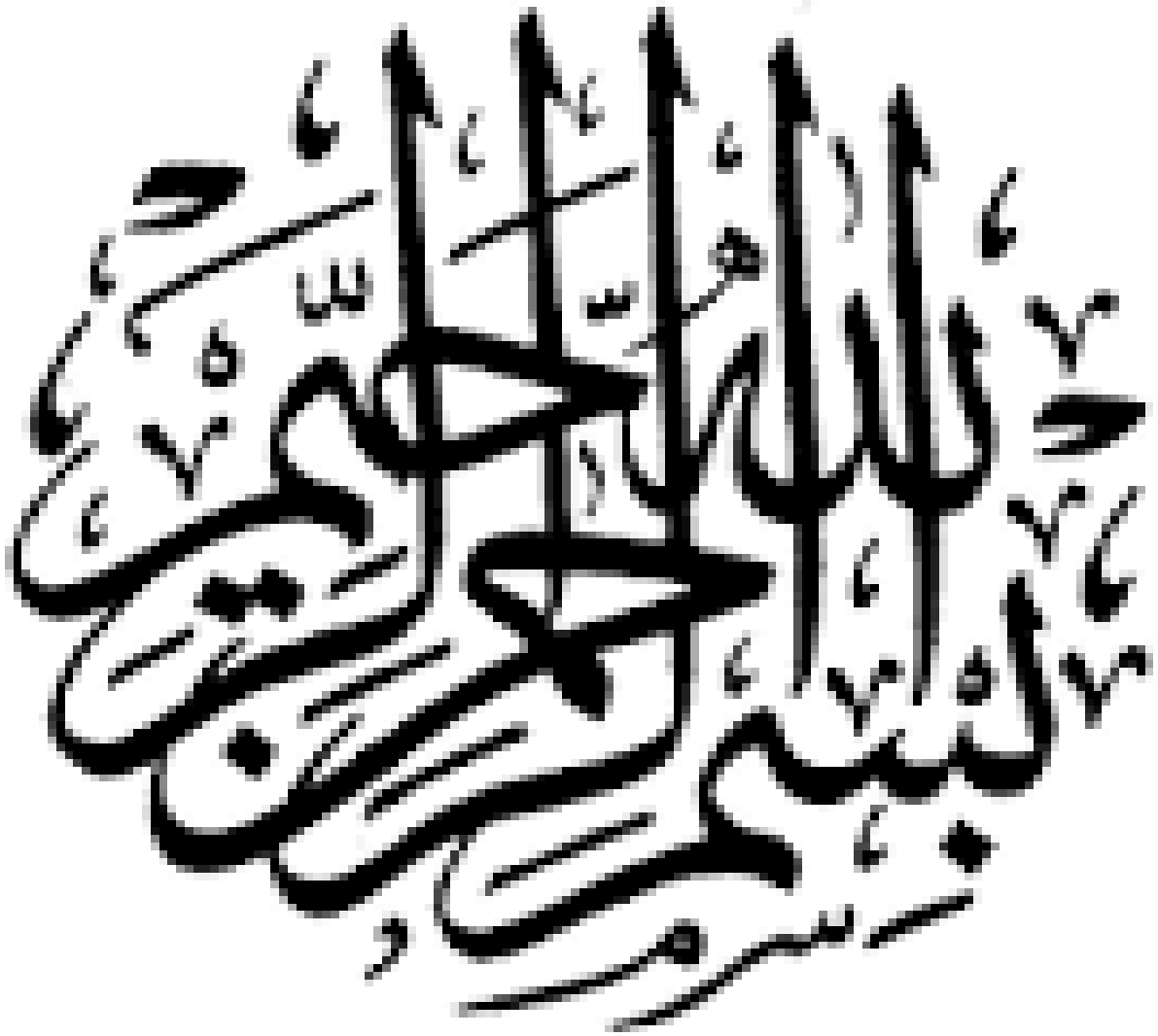

كلمة شكر وتقدير

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على رسوله الكريم ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين ، أشكر رب العباد العلي القدير شكرا جزيلا طيبا مباركا فيه الذي أنارنا بالعلم وزيننا بالحلم ، وأكرمنا بالتقوى ، وأنعم علينا بالعافية ، وأنار طريقنا ويسر ووفق وأعان في إتمام هذه الدراسة وتقديمها على الشكل الذي هي عليه اليوم ، فله الحمد والشكر وهو الرحمان المستعان .

وعرفانا بالمساعدات التي قدمنا حتى يخرج هذا العمل إلى النور نتقدم بجزيل الشكر والعرفان للأستاذة بوزيد نجاة التي قبلت الإشراف على هذا العمل فلها أخلص تحية وأعظم تقدير على كل ما قدمته لنا من توجيهات وإرشادات وعلى كل ما خصته لنا من جهد ووقت طوال إشرافها على هذه الدراسة .

ولا يفوتنا توجيه الشكر والتقدير لكافة الأساتذة الكرام أعضاء الهيئة التدريسية في كلية الأدب العربي وكل الإداريين والعاملين في الجامعة على حسن المعاملة في إنجاز هذا الجهد سواء بالتشجيع أو المساندة .

إهـــــداء

أهدي هذا العمل المتواضع :

إلى من علماني معنى الحياة اللذان لا ينطقان إلا بالعبر فعلماني أن بعد الكدّ

عطاء روح الفقيدين أبي وأمي رحمهما الله

إلى جميع إخوتي وأخواتي وكل من يحمل لقب بومهد وخاصة الجدة

العزيزة أطال الله في عمرها

إلى كل رفقاء الدرب الجامعي،وإلى جميع أساتذتي في المراحل التعليمي

بومهد حنان

إهـــــداء

أهدي ثمرة عملي هذا :

إلى أغلى عيون وأصدق مثال الوالدين أطال الله في عمرهما

أبي وأمي

إلى إخوتي وأخواتي وكل العائلة صغيرهم إلى كبيرهم

وإلى جميع أصدقائي .

بوعلي سفيان

مـقـدمـة

يعتبر أدب الرّحلة من الأنواع الأدبية التي اتسمت بمميزاتها وطابعها الخاص و ذلك أن مضمونها يتعرض لمختلف نواحي الحياة السياسية، الاجتماعية الاقتصادية، الثقافية، الدينية ...الخ، غير أنها لم تحظ بالدراسة التي تستحقها مثلما حظيت الأنواع أو الفنون الأدبية التي تحوي جذور البنية السردية القصصية في أدبنا العربي و الرواية وغيرها .

ويمكن القول أن أدب الرّحلة في تراثنا أهمية بارزة في مختلف المجالات وذلك لما تحتويه الرحلات من فوائد علمية، وأدبية جّمة تعتمد في كثير منها على المشاهدة ، إذ كان بعض الرّحالين يقومون بتدوين مشاهدتهم ،ومواقفهم من أحوال العالم آنذاك ،فقد نقل الرّحالة جوانب مضيئة تتصف بالدقة أحيانا عن بلدان المشرق والمغرب لاسيما أنّ الأندلسيّين كانا أكثر شغفا بالرّحلة من غيرهم فالرّحلة تعكس النهضة والحضارة العربية وهي إلى جانب ذلك تقدم لنا صورة للآخر ، لتثير فينا الشعور بالمنافسة والتفوق . ولعل هذا ما جعلنا نختار هذه الدراسة الموسومة بأدب الرحلة عند المغاربة و الأندلسيين كونه جدير بأن يلقى الاهتمام العلاقة بين الرحلة والسيرة الذاتية.

جاءت هذه الدراسة محاولة تسعى للإحاطة بمختلف الجوانب التي تميط اللثام عن الرحلات من حيث هي فن أدبي له سماته وأساليبه ، التي تشير إلى أساليب أدب الرحلات وسمات العصر والمجتمعات، وقد اتخذنا من الرحلات على سبيل المثال : رحلة العبدري و رحلة أبي حامد الغرناطي .

وعليه نطرح الإشكال التالي : ماذا قدمت أدب الرحلة الجديد ؟،والقيمة العلمية لها ؟ و ما هي الخصائص العامة والخاصة للرحلات الأندلسية والمغربية؟

وللإجابة على هذا الإشكال فرضت علينا الدراسة إتباع المنهج الوصفي التحليلي و خطة اشتملت على مقدمة وتمهيد وفصلين،وخاتمة تضمنت أهم النتائج التي تم التوصل إليها البحث تلاها ثبت للمصادر والمراجع،حيث أوسمنا الفصل الأول تحت عنوان" أدب الرحلة في المغرب للعبدري " و قسمناه إلى ستة مباحث حددنا فيه تسمية الرحلة،ومنهجها وأسلوبها،ومضامين،ومختارات من رحلته وبعض من قصائد العبدري أما الفصل الثاني تطرقنا إلى أدب الرحلة في الأندلس لأبي حامد الغرناطي و قسمناه إلى ستة مباحث حددنا فيه تسمية الرحلة ومنهجها

وأسلوبها،مضامينها،مختارات من الرحلة، وقصائد وفي الختام بعض الاستنتاجات و المقارنة بين الرحلتين.

وفيما يلي عرض مختصر لأهم المصادر والمراجع منها الرحلات المغربية والأندلسية رحلة العبدري،تحفة الألباب ونخبة الإعجاب لأبي حامد الغرناطي .

وقد واجهتنا صعوبة منها ما يتعلق بمقارنة بعض ما جاء في كتب الرحلات و خاصة المواقع الجغرافية ببعض ما ورد في كتب المعاجم والمصادر التاريخية.

و أخيرا لا يسعنا إلا أن نتـوجه إلى المولى عز وجل بالدعاء أن نكون قد وفقنا فيما قدمنا، وأفدنا ببحثنا هذا قراءه ،وأحدثنا على مسامعهم أشياء جديدة بعيدا عن سبل التكرار والتقليد وهذا ما دفعنا إلى اختيار الموضوع المبحوث فيه إضافة إلى الإطلاع على الموضوع في حد ذاته وإدراك بعض الحقائق من خلال دراسة معمقة مع إثراء الحقل المعرفي الشخصي في هذا المجال .

مدخل

تاريخ أدب الرحلة (الشكل و التأسيس)

تمهيد

1- تعريف أدب الرحلة : - مفهوم الرحلة في القرآن الكريم .

- مفهوم الرحلة في اللغة .

2 - بواعث الرحلة في المغرب و الأندلس : - عامل الضرورة .

- عامل ديني .

- عامل إقتصادي .

- عامل ثقافي .

3 - أهمية الرحلة المغربية و الأندلسية : - أهميتها من الناحية العلمية .

- أهميتها من الناحية السياسية .

4 - خصائص الرحلات المغربية و الأندلسية : - خصائص عامة.

- خصائص خاصة .

5 - أهم الرحلات المغربية و الأندلسية : - رحلة العذري .

- رحلة الإدريسي .

- رحلة أبي حامد الغرناطي .

- رحلة إبن جبير .

- رحلة ابن بطوطة .

تمهيد

كانت الرّحلة مجالا رحباّ، ينطوي على علاقات إنسانيّة، ضاربة في جذور التّاريخ السّحيق لهذا الكون،منذ المحاولات الأولى للكائن البشريّ في السّيطرة على الطبيعة،وهي محاولات نرى فيها صورا صادقة لحياة الإنسان القديم وصفحات من جهاده،إذ يرتدي ثوب الارتحال والتّجوال،ويسيرأخبار العرب ويسجل تراث أمّه تشيّد به صرح الحضارة .

ومن خلال الرّحلة،نرى العالم،والعديد من مظاهر الحضارة الإنسانية ونسافر مع الرّحالة،فالإنسان رحّال بطبيعته، والرّحلة هدف يتمناه العقل و تسعى إليه الرّوح،ولكن ليس من رأى وأخذت الأسفار من عمره، كمن قرأ أو سمع فقط.

والرّحلة بعد كل هذا وهي منابع غنّية بمختلف مظاهر حياة المجتمعات البشريّة بما فيها من صور وأخبار ومغامرات،ومعارف وعلوم، إنها خزائن تحفل بالمادة الثّرية، لا في مجال الجغرافيا أو التاريخ وحسب ، بل تلم بالحضارة وتمثّل تجربة تعكس صورة الإنسان عبر العصور .

1 ـ مفهوم الرحلة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة :

لم يدع الإسلام وسيلة من الوسائل التي تفيد الإنسان إلا و حثه على فعلها ومنها الرحلة . سواء أكانت العلم أو الهجرة بالدين من أرض الشرك إلى أرض الإسلام أو الحج أو التجارة .

وفي بداية الحديث عن الرحلة لابد من التطرق إلى الرحلات الثابتة لدينا من أوثق و أصدق مصادرنا الإسلامية وهوالقرآن الكريم . فقد حفل القرآن الكريم بالأمثلة العديدة لكل نوع منها على الرغم من عدم ورود لفظ رحلة فيه إلا مرة واحدة في سورة قريش.قال تعالى : لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ(4) .

وقد أفردت هذه السورة بكاملها الحديث عن الرحلة.وهي رحلة قريش التجارية. فكما هو معلوم أن أهل مكة المكرمة اتجهت أنظارهم إلى التجارة بحكم موقع مكة {بواد غير ذي زرع } كما قال تعالى على لسان خليله إبراهيم عليه السلام " رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37) ".[1]

فقد أظهرت سورة قريش بوضوح رحلتها إلى الشام واليمن،والتي جنت منها أرباحا طائلة انعكست أثارها على أوضاعها الاقتصادية. ولم يكن هدفها من الاستيراد الاكتفاء الذاتي فقط ،بل قامت بتصدير الفائض عن حاجتها إلى أطراف السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية والشام واليمن والسواحل الإفريقية المقابلة حيث بلغت أحمال كل قافلة لتلك الجهات أكثر من ألف بعير[2]،إلى جانب أن أكثر تجارها هم من أهل البيت الحرام والتي زادت مهابته في نفوس الناس عقب حادثة الفيل،فلم يجرؤ أحد بالتطاول على تجار مكة إذ أن الله تعالى منّ عليهم بهذا الأمان كما جاء في سورة قريش .

وعلى ضوء ذلك تمتعت مكة المكرمة بمكانة عظيمة وتقاطر الناس عليها استجابة لدعوة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام،فهذا فيما يتعلق بالرحلات الخارجية أما الرحلات الداخلية فكانت :

أولا : لأداء فريضة الحج بدافع ديني و كانوا يستفيدون من رحلتهم تلك في التبادل التجاري حيث كانت تعتقد الأسواق قبل الحج و بعده .

ثانيا : الرحلات إلى أسواق العرب التي أقاموها في نواح متعددة من جزيرتهم واشتهر منها سوق عكاظ وذي الحجاز وعمان وصنعاء والحبشة و غيرها .

[1] - سورة إبراهيم ، الآية 14 / 37 .

[2] - جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج 7 ، ط4 ، دار الساقي ،1422هـ - 2001م،ص 290 - 291 .

لقد حرص العرب على إقامة هذه الأسواق سنويا،وتميزت بتنافس الشعراء في إظهار عبقريتهم الشعرية،إلى جانب استغلال هذه الأسواق أيضا لتبادل السلع التجارية المختلفة والترويج للأفكار والديانات الجديدة ، فقد عرض الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه على العرب في هذه المواسم، ودعاهم إلى الإسلام والدفاع عنه .

ثالثا : الانتقال سعيا وراء العشب و الماء،لأنهما قوام حياة العربي في ذلك الوقت فهذه الرحلات الثلاث داخلية،يقومون بها سنويا وبانتظام داخل بلادهم .

1 . 2 ـ الرحلة في مفهوم اللغة :

الرّحلة في اللغة الترحيل والارتحال بمعنى الإزعاج يقال رحل الرجل إذا سار.[1] فالرحلة هذا بمعنى السير والضرب في الأرض وجاءت الرحلة بمعنى الارتحال أي الانتقال من مكان لآخر" والترحل والارتحال الانتقال وهو الرحلة والرحلة اسم للارتحال ."

وجاءت الرحلة أيضا بمعنى الجهة التي يقصدها الإنسان" الرحلة الارتحال،والرحلة و الرحلة بالضم الوجه الذي تأخذ فيه وتريده، تقول أنتم رحلتي أي الذين أرتحل إليهم "، كما تطلق الرحلة على السفرة الواحدة .[2]

فالشخص الذي قام بالرحلة،قد ترك موطنه،وانتقل إلى مكان آخر،و سافر من موطنه وقصد جهة أخرى غير موطنه وسار إليها،إذ كان لفظ رحلة أعم وأشمل ما يطلق على المسافر من مكان إلى آخر،فالرحال صفة مشتقة من الفعل الذي قام به وهو الرحلة.

ورحلات المسلمين منذ بدايتها كانت كاملة،متوفر بها جميع الأسباب و الوسائل. فمنهم من رحل لأخذ العلم ومنهم من رحل لاكتشاف الأقطار المراد فتحها وهناك رحلات منتظمة ربطت أقطار الدولة الإسلامية بعضها ببعض مثل البريد المعروف في الدولة الإسلامية .

---

[1] ـ ابن منظور ، لسان العرب ،ج11 ، د.ط ، دار صادر ،بيروت ،ت1290 ،ص 276 .

[2] ـ المرجع السابق ، ص279 .

1. 3 ـ بداية الرحلات في الإسلام وأشهرها :

ـ رحلة الإسراء و المعراج :

قال تعالى : سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1).[1]

إنّ حادثة الإسراء ثابتة متواترة منذ حدوثها.فقد سيره سبحانه وتعالى،ليلا إلى المسجد الأقصى،وسمي الأقصى لبعده عن المسجد الحرام،فهو لا يبلغ إلاّ برحلة وراحلة.

وقال المفسرون إنما قال ليلا يلفظ التنكير لتقليل مدة الإسراء،وإنه قطع به المسافات الشائعة البعيدة في جزء من الليل،وكانت مسيرة أربعين ليلة .[2]

ـ رحلة أبي ذر الغفاري لفهم تعاليم وقواعد الإسلام :

من أولى الرحلات في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام أثناء وجوده بمكة المكرمة أول مبعثه،وغرضها معرفة مبادئ الدعوة الإسلامية،وهي رحلة أبي ذر الغفاري إلى مكة المكرمة إبان مبعثه صلى الله عليه وسلم للتثبيت مما يدعو إليه.

ـ رحلات لتعليم مبادئ الإسلام و هجرة الصحابة من أرض الشرك :

وهذه الرحلات حدثت في وقت مبكر من الدعوة،فمنها رحلة مصعب ابن عميرعقب بيعة العقبة الأولى إلى المدينة المنورة مع وفد العقبة ليقرئهم القرآن الكريم و يعلمهم الإسلام و يفقههم في الدين.[3]

وكانت رحلات الصحابة بأمر من الرسول عليه الصلاة والسلام بترك أرض الشرك عقب معاناتهم من أذى المشركين، فأشار عليهم بالتوجه إلى الحبشة فاستجابوا لذلك فرارا بالدين وخوفا على أنفسهم من الفتنة،وتتابعت هجرة

---

[1] ـ سورة الإسراء ، الآية ، 18 / 1 .

[2] ـ القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج1 ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ص 204 ـ 212 .

[3] ـ ابن هشام : السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري ،ج 1 ، د.ط ،دار الكنوز الأدبية، ص 434 .

المسلمين إلى الحبشة،فمنهم من خرج وحيدا،ثم تلتها هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة،ثم تتبعت البقية لاحقا .

- رحلات الرسل لتبليغ الدعوة الإسلامية :

بعد إرسال الدولة الإسلامية وقع عبء تبليغ الدعوة للجهات النائية على الرسل الذين انطلقوا لنشر تعاليم الإسلام،ومنهم معاذ جبل الذي توجه بأمر الرسول عليه الصلاة و السلام إلى اليمن .

- رحلات التجار :

لم تكن رحلات المسلمين مقتصرة على الناحية العلمية التي حظيت النصيب الوافر،بل كان التجارة دور كبير،وخاصة أن أساطيل المسلمين التجارية أخذت تجوب جميع البحار،وصلت إلى مناطق شاسعة في الهند والصين والبلدان الأوربية .[1]

ومع الأسف لم يكن شائعا في ذلك الوقت تدوين تلك المعلومات في كتب معروفة بل عرفت طريق أصدقاء الرحالة من معاصريه،وقد اعتمد الجغرافيون في تصنيفاتهم على الوصف والمشاهدة والملاحظة.وأصبحت مؤلفاتهم ذات أهمية كبيرة .[2]

ومما سبق يتضح لنا اختلاف أغراض الرحلة والارتحال،والتي في جملتها أفرزت لنا أدبا مميزا يمكن أن نطلق عليه أدب الرحلة. ولا شك أن أمتع كتب الرحلات وأرفعها قيمة علمية وأدبية : هي تلك التي قام أصحابها بتأليفها بسبب خروجهم للحج أو طلب العلم أو الاثنين معا . " فكانت حواضر العالم الإسلامي مراكز علم وإشعاع،خاصة مكة المكرمة والمدينة المنورة. فكان العلماء يقصدونها بغية التزود بالعلم والمعرفة يفد إليهما الوافد من أقصى المشرق أو المغرب فيلتقي بعالم آخر من بلاد بعيدة عن بلاده فيحصل من هذا الالتقاء تقارب وتفاهم وانتشار الأفكار بين مختلف الأقطار الإسلامية .

---

[1] - محمد محمود الصياد ،رحلة ابن بطوطة ، د.ط ،دار المعارف للطبع و النشر ،تونس 1985م ص 7- 8 .

[2] - البلوي ، تاج المفرق ، تحقيق و مقدمة الحسن السائح ،ج2 ، ط1 ،المغرب ،ص 86.

وهناك نوع آخر من الرحلات تم تحت رعاية الخلفاء،وهي رحلات البعوث، ومنها رحلة ابن فضلان.

- رحلة ابن فضلان :

ويبدو أن سبب هذه الرحلة هو رغبة ملك الصقلية وقومه في فهم التعاليم الإسلامية الصحيح،فبعث إلى الخليفة العباسي المقتدر بالله طالبا انتداب بعض من رجاله لتلك المهمة إلى جانب العناية بتشييد مسجد،منبر وحصن يمتنع به ضد أعدائه المشركين،فلبى الخليفة دعوته ومن ضمنها ابن فضلان الذي أحسن القيام بالمهمة الموكلة إليه على أكمل وجه .

ومنذ خروج الرحلة نجد أن ابن فضلان كان يسجل انطباعاته و مشاهداته ساعة بساعة،ولم يقتصر وصفه على مملكة الصقلية.فمن ذلك وصفه لأهل خوارزم حيث وصفهم بأنهم أوحش الناس كلاما مع ملاحظته لظاهرة النقود المزيفة فيها .[1]

وحرص ابن فضلان في رحلته على تدوين كل ما مر به،وخاصة استقبال البعثة العباسية والنواب المكلفين بذلك،في حين قام ملك الصقلية بلقائهم خارج المدينة على بعد فرسخين منها .

وقد أسهم ابن فضلان في حث أهل تلك المناطق على تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية،كما نهى عن إقامة الدعوة على المنابر للملك بقولهم " اللهم أصلح الملك بأطوار ملك البلغار " إذ الملك هو الله ولا يجوز الدعوة به لأحد على المنابر فانصاع حاكم البلغار لذلك وأطلق على نفسه اسم جعفر تيمنا باسم الخليفة العباسي المقتدر بالله.المنابر فانصاع حاكم البلغار لذلك وأطلق على نفسه اسم جعفر تيمنا باسم الخليفة العباسي المقتدر بالله .

إن رحلة ابن فضلان كانت تسجيلا حيا لما كان عليه أهل تلك المملكة في جميع نواحي حياتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية.وهي بذلك وصف متكامل ولم يعتمد فيه على الذاكرة .

[1] - ابن فضلان ،رحلة ابن فضلان ،تح وتعليق سامي الدهان ،د.ط،دمشق،ص115- 143.

بالإضافة إلى أن أسلوبه في الوصف مترابط سهل مفهوم ويمكن أن يعد من النثر العلمي،ويمكن أن يقال عنها أيضا رسالة رائدة في أدب الرحلات.

2 ـ بواعث الرحلة في المغرب و الأندلس :

عرف العرب الرّحلات منذ أزمة قديمة تعود إلى ما قبل الإسلام حيث كانت حياتهم تقوم على الحلّ،إذ لا يكاد يستقر بهم المقام في منطقة حتى يرحلوا عنها إلى أخرى بحثا عن الكلأ و الماء،وقد أشار القرآن الكريم إلى رحلتي قريش التجاريتين في الشتاء والصيف إلى الشام واليمن" لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ(4) ". فضلا عن الحركة الدائبة للرعي والصّيد " فقد مارس الإنسان الصّيد والطّرد منذ دهور سحيقة باحثا عن قوته أو مدافعا عن نفسه،أو ناشدا الرياضة والمتعة " .

" فطبيعة المجتمع البدوي القائمة على النّقلة والرّعي وحماية مواطن الغيث، و ما يتّصل بذلك من حروب تقطع الحبّ جعلت من الجاهليّ إنسانا عالقا بالأرض في شؤون حياته جميعا ـ بما في ذلك الدّين ـ فكانت شؤونه الاقتصاديّة صورة عن علاقته بالأرض أو نتيجة لها،وكانت علاقاته الاجتماعيّة ـ بدورها ـ مرهونة بشؤونه الاقتصاديّة،ويوحى منها ربّما رحل وانتجع ".[1]

وإلى جانب ذلك أصبحت الرّحلة عنصرا أساسيا من عناصر القصيدة الجاهلية،" وتحدثنا كتب الشعر الجاهليّ،وتراجم الشعراء عن رحلات بعض الشعراء داخل الجزيرة العربيّة أو خارجها،إلا أنها لم تدوّن على نحو أدب الرّحلة كما نعرفه،وإنما وصلتنا ضمن مضامين الشّعر الجاهليّ،أو ضمن تراجم بعض الشعراء " .

وقد كثرت الرّحلات الأندلسيّة والمغربيّة إلى المشرق،إذ يرى نقولا زيادة أنّ "رحلة المغاربة إلى المشرق كانت على وجه العموم أكثرمن رحلة المشارقة إلى الغرب،فمركز الحجّ في المشرق ومدن العلم الأولى فيه، فكان من الطبيعيّ أن يزور المغاربة الشّرق أكثر من زيارة المشارقة بلادهم ".ولم تكن الرّحلات مقتصرة على جانب واحد أوطريق واحد،وإنما كانت تتمّ بين المدن الأندلسية

[1] ـ رومية وهب ،الرحلة في القصيدة الجاهلية ،ط2،بيروت،ص19.

نفسها المعروفة بالنشاط العلمي والحركة الثقافيّة الواسعة مثل قرطبة،واشبيليّة، وخارج الأندلس والمغرب .

ويمكن أن توجز أسباب رحلة المغاربة والأندلسيّين في العوامل التالية :

أولا :عامل الضرورة :

عرف الإنسان الرّحلة منذ أن عرف الحياة على الأرض،وحملته اليابسة، وارتبط بها وأحبها لما وفرته له من أمن واستقرار،إلا أنه قد يتعرض لعارض يدفعه لهجر وطنه فيغادره بحثا عن الكلأ والماء،وهروبا من مصيبة كظلم حاكم أو أمير،أو يأسا من المجتمع،و ظروف اجتماعية قاسية،وويلات و نكبات.

و قد عانى بعض الأدباء الأندلسيّين و المغاربة من ظروف أحاطت بهم و أرغمتهم على مغادرة البلاد مكرهين،و هم يحملون و وطنهم في قلوبهم، حيث لا يغرب عن البال ما للظروف السياسّية الداخليّة والخارجيّة من أثر في إقامة شخصيّات مغربية وأندلسيّة في المشرق .[1]

ومن هنا ندرك أن الرّحلة ضرورية في حياة الأندلسيّ والمغربيّ،فرضتها عليهما مساحة الأندلس الواسعة،و بعدها الشاسع عن المشرق .

ثانيا :العامل الديني :

يمثل هذا العامل السّبب الرئيسيّ والأوّل لأغلبيّة المتوجّهين إلى المشرق الإسلاميّ،فهو العامل الذي يقضي بشدّ الرّحال من كلّ حدب و صوب إلى الحجاز والأماكن المقدّسة،لأداء فريضة الحجّ،الواجبة على المسلم ما لم يعقه من ضعف أو قلّة مال،قال تعالى : " وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27) " .[2]

ويعدّ هذا العامل من أقوى البواعث على الرّحلة فهو مبعث الحنين في نفوس الأندلسيّين والمغاربة على ارتياد البلد الحرام، فالحجّ من أهم الوشائج التي ربطت بين المشرق والمغرب،وعملت على توحيد الثّقافة في سائر أنحاء البلاد الإسلامية

[1] ـ ابن الخطيب،الإحاطة في أخبار غرناطة ،تحقيق محمد عبد الله عنان ،ج4 ، د.ط ، دار المعارف،مصر 1955 ،ص460 .

[2] ـ سورة الحج : الآية 27 .

على الرّغم من المسافات الشّاسعة التي تفصلها الحجاز،ولم تستطع هذه المسافات أن تحول دون توجه الأندلسيّين و المغاربة للحجّ و زيارة البقاع المقدّسة،حيث يدفعهم الشّوق إليها ،وإلى منبتهم الأصليّ في المشرق،فما أن يصل أحدهم هذه الدّيار حتى يطفح قلبه فرحا وتفيض مشاعره إكبارا وإجلالا مثل رحلة العبدري تتميز بأنها تّمت عبر البرّ،فلم يركب البحر كما فعل غيره من الرحالة،وهذا يعطينا صورة حيّة عن قوافل الحجّ البريّة، وكيف كانت تسير عبر الطريق و المحطات،كما وصف البلاد التي مرّ بها موضّحا الحالة الاجتماعيّة والعلميّة و الثقافيّة السائدة في تلك البلدان في القرن السابع الهجريّ .

ولعلّ هذا العامل ينطوي على عامل نفسّي،نلحظه في شدة تعلّق الأندلسيّ،المغاربة بزيارة الأماكن المقدّسة والمجاورة بها،إلى أن تحضرهم الوفاة، فيدفنون في أرض طيبة بجوار الصّحابة و التّابعين و أرض الأنباء.[1]

ومن اللّافت للانتباه أن بعض الرّحالة اتّخذ رحلته الحجازيّة لغاية الوعظوالتّعلم،فالرّحلات أكثر المدارس تثقيفا للإنسان وإغناء لفكره،وتأملاته عن نفسه وعن الآخرين مهما اختلفت دوافعها وتباينت وسائل السّفر وتنوّعت مادتها.

ثالثا : العامل الثقافيّ :

إنّ أسباب الرّحلة متعدّدة ،ولها صلة وثيقة بطابع الحضارة العربيّة الإسلاميّة، التي امتدت سيادتها على دنيا المشارق والمغارب " وطبيعيّ أن تكون الرّحلات و الأسفار من[2]أول السّبل لطلب العلم في تلك العصور" ويلحظ أيضّا أن العامل الثقافيّ مرتبط بالعامل الدينيّ،فالدّين نفسه يدعو إلى العلم والمعرفة،فقد حثّ الرّسول عليه الصلاة والسّلام على طلب العلم والرّحلة في سبيله،ومن ذلك قوله صلى الله عليه و سلم :

" .....و من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهّل الله به طريقا إلى الجنّة،وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السّكينة وغشيتهم الرّحمة و حفّتهم الملائكة ،و ذكرهم الله فيمن عنده " .

---

[1] ـ أبو القاسم سعد الله ،رسالة الغريب إلى الحبيب،ط1،دار الغرب الإسلامي،بيروت لبنان1993، ص18-25 .

[2] ـ حسن،زكي محمد،الرّحّالة المسلمون في العصورالوسطى،د.ط،دارالمعارف،القاهرة 1945،ص6.

ونجد بعض الرّحالة المغاربة والأندلسيّين يتنقلون داخل بلادهم أو ينتهزون فرصة أدائهم فريضة الحجّ،للقاء العلماء والفقهاء،وزيارة المراكز العلميّة،وتسجيل أسماء مشايخهم،و مروياتهم والترجمة لعدد كبير منهم ممّا أضفى الصبغة العلميّة على رحلاتهم،فغدت كتبا علميّة يغلب عليها الجانب الثقافيّ أكثر منها رحلة أدبيّة. و قد سميت بالبرامج أو الفهارس .

رابعا : العامل الاقتصادي :

كانت التّجارة منذ قديم الزّمان أمراّ يقتضي القيام بالرّحلة والسّفر البعيد و السّعي في سبيل الكسب برّا وبحرّا،فالعالم العربيّ بحكم توسّط موقعه بين قارات العالم القديم،كان مركزا لالتقاء الطّرق التّجاريّة بين هذه القارات، كما أنّ انفصال الماء وتداخله في اليابسة في المنطقة العربيّة،جعلها تحتلّ موقعا تجاريّا هاما في تطور الحضارة العربيّة العصور الوسطى،وجسرا تعبر منه الثقافة والفكر وليس فقط لنقل السلع والبضائع .

فمارس العرب التّرحال،وقاموا برحلتيّ الشّتاء والصّيف اللتين ورد ذكرهما في القرآن الكريم ،وأبحرت في مياه المحيطات الكبرى .

لقد عانت الأندلس والمغرب من أزمات الاضطراب والقلق،التي أدّت إلى تأخر التّجارة و ضعفها، لذا فإنه من المؤكد أنّ قسما من الرّحالة خرج مبتغيا سبل العيش في جوّ أكثر استقرارا . ولأنّ الرّحلة قد تطول، فيحتاج الرّاحل لمصدر رزق يساعده في متابعة رحلته،فقد كان يبحث دائما عن تجارة أوعمل يغطي نفقاته .[1]

و لعلّ بعض الإشارات الواردة في الرّحلات عن وجود الفنادق بكثرة في البلاد التي يزورها الرّحالة،تدلّ على أنه قد هيّ ء سكن للتّجار والحّجاج وأعدّ لنزول المسافرين به.

و في إطار الدّوافع التي دعت إلى القيام بالرّحلة ، فإنّ هناك عوامل أخرى يمكن إضافتها إليها ، وإن كانت لا تقدّم إشارات واضحة و مباشرة، إلا من بعض

[1]- ابن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار ، ج 2 ، بيروت ، 2004 ، ص 181 .

التلميحات،فقد تدفع الاضطرابات والفتن والحروب أوالثّراء في بعض المجتمعات إلى رحيل البعض هربا من كلّ ذلك ، و زهدا و مجاورة للأماكن المقدّسة و إتّباع طرق التّصوف .

وهكذا عرضت الدّراسة تصنيفا للدوافع الموجبة والمسببة للرحلة عند العرب والمسلمين الأندلسيين و المغاربة للمشرق و بعض الأقطار الأخرى إبّان الفترة من منتصف القرن الثّالث الهجريّ حتى نهاية القرن التّاسع الهجريّ.

و قد تعددت هذه الدّوافع ،وتداخلت لتأتي جملة متكاملة من العوامل، تأتلف ليجمع بعضها،كاجتماع العامل الدينيّ والثقافيّ،أو الدينيّ والعامل الشخصيّ وهي إن تعددت، فإنّها لم تخرج في معظمها عن الجمع بين أداء فريضة الحجّ وطلب العلم والمعرفة الدينيّة،فجاءت نسقا متكاملا يلتقي مع كلّ النشاطات الإنسانية،التي تشكّل الحضارة الإنسانية بكلّ أبعادها،ولتساهم في إفراز الرّحلة الأندلسية والمغربيّة على مرّ العصور .

3 ـ أهمية الرّحلات المغربية و الأندلسية :

لقد كان أدب الرّحلة في الأندلس والمغرب،تصويرا للحضارة،بما تحوي من طريف الأخبار،ونادرالحكايات،وعجائب المخلوقات وعادت الأمم و أخلاقهم،وبما فيها من فوائد تاريخيّة،وجغرافيّة ونموّ للثروة الأدبيّة،ووصف للحوادث والبلاد والأصقاع،فلا شك أن الرحلات الأندلسية والمغربية ظاهرة أدبية تاريخية،فرحلة ابن بطوطة أفادت الجغرافية الطبيعيّة والبشريّة والعادات والتقاليد الاجتماعيّة،والمأثورات الشعبيّة[1].

والرحلات تكشف مالا يكشفه التاريخ،فالتّاريخ عام يشمل على تصوير لحيات البلدان الاجتماعيّة والثقافيّة والاقتصاديّة،ونظم الحكم لشعب من الشعوب، وهذا ما حققته الرحلات غيرأنها أعطت كلّ ذلك بعده المناسب،وتطرقت إلى تحليل جوانب لم تتطرق إلى تحليلها الوثائق التاريخية ،وأهمية الرّحلات تكمن في قيمتها العلمية والفنية،فالقيمة العلميّة،تمثلت بتزويد أهل التّاريخ والجغرافية والآثار و الأدب وغيرهم بمعلومات قيّمة عن وصف المدن والطرق والعمران والبلدان، وأخبارالنّاس وعاداتهم وتقاليدهم والحوادث الغريبة،بل إنّ الرّحّالة أنفسهم

[1] ـ حسين،حسني محمود،أدب الرحلة عند العرب،د.ط ،القاهرة،ص 5.

يحصلون على علم وافر وتجارب كثيرة في مختلف الميادين في التربيّة وأساليب التّعليم والتّهذيب،نظرا لما يصادفهم من المصاعب وتعدد من يقابلونه وما يؤكد ذلك أنّ الرّاحل حين يعود إلى الأندلس يعمل في التّدريس و كان يكلّف بالقضاء و مهام أخرى .

وما نلمسه في كتب الرحلات أنها تحوي على قيمتين بارزتين هما القيمة العلمية والقيمة الأدبية،فتكمن القيمة العلمية في تلك المعارف الجغرافية و التاريخية والاجتماعية والاقتصادية،و ذلك نتيجة اتصال الرّحالة المباشر بالطبيعة واحتكاكه بالناس[1]،فيوصفه البلدان والأقاليم والمناخ والطبيعة والسكان وعاداتهم فكل تلك المعلومات تعتبر مصدرا هاما بالنسبة لمن يتناول هذه الموضوعات بالدراسة،وهي تفيد بذلك علم التاريخ والآثار والاقتصاد والأدب والأساطير لأنها مدونة حقيقية لمجتمع معين في زمن محدّد.

أما القيمة الأدبية فتتجلى في أسلوبها الممتع الذي يرقى إلى الأدب لما مجمله من تنوع من سرد قصصي إلى الحوار وإلى الوصف المشوق السلس،بعيدا عن التزويق والتنميق اللفظي المتكلف مستعينا في ذلك بالتعبير السهل البسيط الذي يفي بمقصود تجربة صاحبه،فهو يتراوح بين الأناقة اللفظية الأدبية وبين الصرامة العلمية.و من النواحي في أهميتها مايلي :

أ ـ أهميتها من الناحية العلمية :

إن رغبة الرحالة المغاربة والأندلسيين في أداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة وارتياد مراكز العلم في المشرق بعد أن تجاوزوا سن الطلب ووصلوا إلى سن تأهلهم بمجالسة كبار العلماء للأخذ والعطاء،وبهذا أثريت الناحية العلمية بفضل التبادل العلمي القائم على الالتقاء بكبار العلماء للأخذ والرواية عنهم و الحصول على إجازاتهم العلمية في المراكز التي وصلوا إليها والتي تعد ينابيع فياضة بالعلم و المعرفة . و بهذا أصبح الرحالة رسل علم ومعرفة وحلقة اتصال و تبادل فكري بين الشرق والغرب أتاح لأهل المغرب والأندلس النهل من علوم المشرق على أيدي هؤلاء الرحالة الذين قاموا بتدريس تلك العلوم و خاصة

[1] ـ سيد حامد النساج ، مشوار كتب الرحلة قديما و حديثا ، د.ط ، مكتبة غريب القاهرة 1958 م،ص 8.

علوم الحديث وملحقاته لمواطنيهم إلى جانب ذكرهم للمدارس ومنشئيها وأماكنها والعلماء المتصدرين للتدريس فيها .

ب ـ أهميتها من الناحية السياسية :

إن ما سجله الرحالة المغاربة والأندلسيون من ملاحظات عن الأحوال السياسية في البلاد الإسلامية التي نزلوا بها كشف لنا كثيرا من الأمور التي نجهلها عن علاقات الممالك الإسلامية بعضها مع بعض،وخاصة علاقات الحجاز بجيرانه،والتي توضح مدى ما تمتع به الأشراف من مكانة بين سلاطين وأمراء المسلمين ،وعلاقتهم بالمماليك هي علاقة تبعية .[1]

4 ـ خصائص الرّحلات المغربية و الأندلسية :

انفرد الرحالة المغاربة و الأندلسيون في كتابة رحلاتهم بخصائص ميزتهم عن غيرهم من الرحالة المشارقة،والتي أصبحت سمة بارزة من سمات أدب الرحلات المغربية والأندلسية.كما انفرد كل رحالة ببعض الخصائص في رحلته.و يمكننا أن نقسم هذه الخصائص إلى عامة وخاصة .

1ـ الخصائص العامة :

أ ـ التجربة و الاختبار :

اعتمدت معلومات الرحالة المغاربة والأندلسيين والمدونة في رحلاتهم على التجربة و الاختبار في أغلب الأحيان،لا على الرواية والنقل،فمثلا ابن جبير قام بقياس طول وعرض المسجد الحرام،أما العبدري والتجيبي السبتي فأثبتا نفس القياس و أرجعا نسبته إلى الأزرقي [2]، وكذلك ابن بطوطة وعلى الرغم من بقائه مدة طويلة بمكة المكرمة إلا أنه لم يشر إلى قياسه بنفسه . وأهل الأمر يعود إلى طول غيابه عن وطنه و فقدان أوراقه التي دون فيها ملاحظاته.

[1] ـ عواطف محمد يوسف نواب ، الرحلات المغربية والأندلسية ، د.ط ، الرياض ، ص 91 ـ 92.

[2] ـ العبدري ، الرحلة المغربية ، تح ، محمد الفاسي ، د.ط ، الرباط ، 1968 ، ص 175.

ب ـ الوصف الجغرافي و العمراني :

إن الوصف الجغرافي هو القاسم المشترك لأغلب الرّحالة المغاربة و الأندلسيين فقد اختصت معظم كتاباتهم بالوصف الجغرافي لكل مكان و صلوا إليه وعاينوه بالمشاهدة. فمنهم من أسهب في الوصف كابن جابر ومنهم المقل كابن رشيد،ويشمل الوصف الجغرافي لديهم،وصف الأحوال الجوية،والمدن و المساجد،و البحر وغيرهم .

ج ـ وصف أحاسيس النفس :

ظهرت براعة الرّحالة المغاربة و الأندلسيين في تصوير ما يعتلج في نفوسهم سواء عند الفرح أو الخوف من شيء مخالف للسنة، فقد أبدع ابن جابر ثم البلوي على سبيل المثال في وصف مشاعرهم لحظة دخولهم لمكة المكرمة [1].

د ـ تصحيح ما يرونه من أخطاء شائعة :

من جملة ما اختص به الرّحالة المغاربة و الأندلسيون تصحيح ما يرونه من أخطاء شائعة في عصرهم . فهم يوردون ما يشاهدونه و يستنكرونه،ثم يتبع ذلك تصحيحهم لها مع إبراز رأيهم و بيان ما يقال في ذلك و حقيقته . فمما أورده العبدري أثناء وصفه لبدر قائلا [2] :" أن هناك غارا يذكر الناس تخرصا أنه الغار الذي دخله الرسول صلى الله عليه و سلم و أبو بكر رضي الله عنه حينما هاجرا من مكة "وأوضح عدم صحة ذلك و أن الغار المذكور موجود في جبل ثور قريب من مكة .

هـ ـ تسجيل الأحداث التاريخية المعاصرة :

سجلت أقلام الرحالة المغاربة و الأندلسيون العديد من الأحداث التاريخية التي عاصروها أثناء وجودهم في الحجاز و كانوا شاهد يعيان لها ، فحرصوا على تدوينها ، و بهذا حملت تلك المعلومات الدقة و الصدق .

---

[1] ـ ابن جبير،الرحلة ،ط 1 ،دار بيروت للطباعة و النشر بيروت ،ص 58 .

[2] ـ العبدري،الرحلة العبدرية ، تح محمد الفاسي ، د.ط ، الرباط ، 1968 ، ص 1 ـ 2 .

كما اهتم بعض الرحالة المغاربة و الأندلسيون بذكر أسماء بعض الملوك المعاصرين لهم و الذين كانت لهم صلة بالحجاز مع إيراد طرف من سيرهم بعيدا عن التحيز .

و ـ الناحية الاجتماعية :

شكلت النواحي الاجتماعية جانبا لا يستهان به من فن الرحلة عند المغاربة والأندلسيين، وهي من أبرز خصائصها،وقد أفاض في هذا الجانب الرحالة ابن جبير وابن بطوطة من خلال تسجيلهما لتلك الناحية لأهل الحجاز مكة مكرمة والمدينة المنورة .

ز ـ الناحية الاقتصادية :

تعرض الرحالة المغاربة و الأندلسيين للإشارة إلى الناحية الاقتصادية،و نستطيع استنتاج تلك الجوانب من خلال ما أوردوه في كتبهم ، فمن ذلك ما ذكره التجيبي عن الحجاز،أن بجده عاملا من قبل أمير مكة مهتمة الأساسية قبض الضرائب من الحجاج .[1] وقد أظهر تنمره من هذه الضرائب لعدم مشروعيتها فقال: والله تعالى يصلح أحوال الجميع ويعظم الأجر بذلك فعلى قدر النفقة و النصب يكون الأجر ومعني هذا كانت الضرائب تشكل أحدد موارد الدخل لأهل الحجاز في تلك الفترة .

2ـ الخصائص الخاصة :

تميز الرحالة المغاربة والأندلسيين بمميزات خاصة في تدوين رحلاتهم فكل رحالة يكمل ما نقص من سلفه ويضيف إلى فن الرحلة لبنات جديدة أعطته صفته وميزته عن باقي الرحالة المسلمين في العالم الإسلامي. فمثلا نجد أنّ رحلة الرعيني تميزت بالبرامج المختلفة نلاحظ أنّ ابن رشيد كل ما ذكره يعد جديدا على فن الرحلة وحرص على إضافته وإن كانت الترجمة للشيوخ قديمة بقدم علم الحديث ولكنها هنا في الرحلة المغربية والأندلسية تعد جديدة [2].

---

[1] ـ انظر ، ابن منظور، لسان العرب ، ج6 ، د .ط ، بيروت ، ص 220 .

[2] ـ ابن رشيد ، ملء العيبة ، تحقيق محمد الحبيب ابن خوجة ،ج 5 ،ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت لبنان ،ص34 .

أما العبدري فرحلته تأرجحت بين الرحلة الوصفية والعلمية إذ تشتمل على قسط وافر من الوصف سواء للمراحل أو المدن أو الآثار بالإضافة إلى عنايته الفائقة بشرح النواحي السياسية والحضارية في حين أن الجانب العلمي حظي بالقليل من اهتمامه .

و من الملاحظ أن بعض الرحالة المغاربة والأندلسيين عند الإدريسي، نزهة المشتاق. خروجهم من موطنهم لأداء الفريضة وطلب العلم يكون في صحبتهم أحد قرابتهم أو أصدقائهم مثل ابن جبير وابن رشيد والعبدري .

5 ـ أهم الرحلات المغربية و الأندلسية :

رحلة العذريّ،وهي رحلة بعنوان ترصيع الأخبار و تنويع الآثار و البستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك. و يبدو من نص الرّحلة ميل العذري الشديد إلى تصديق العجائب،حيث أفرد قطعا لمختلف أنواع العجائب في رحلته .

رحلة الإدريسي [1]، في القرن السادس الهجريّ،ورحل الإدريسيّ لتأدية فريضة الحجّ إلى بيت الله الحرام،أو كتاب الرجّاري نسبة إلى راعيه الملك رجّار ملك صقليّة،الذي وضع تحت إشراف الإدريسي مجموعة من العارفين و المتجولين في البلاد النّائية .

رحلة أبي حامد الغرناطيّ [2]، في القرن السّادس الهجريّ، الذي يمثل إضافة حقيقية للجغرافيّين وأدب الرّحلات،حيث اتجه اتجاها خطيرا نحو تصور العجائب والغرائب بطريقة خرافية غير معقولة غير أنّ بعضها اليوم يرى معقولا .

رحلة ابن جبير[3]، في أواخر القرن السادس الهجريّ و أوائل القرن السابع الهجريّ،وهي رحلة عرضت الدّراسات لقيمتها الجغرافية والتّاريخية و الاجتماعية،إذ إنها كنز حافل بالمعلومات .

---

[1] ـ انظر ، ترجمة الإدريسي ، نزهة المشتاق ، المغرب العربي ، الجزائر ، 1983، ص 13 .

[2] ـ انظر ، ترجمة ، رحلته المعرب عن بعض عجائب المغرب ، مقدمة المحقق ، ص 10، كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ،ج2 ، ط1، دمشق ص 326.

[3] ـ انظر ترجمته في هذه الدراسة ، ص 13 .

رحلة ابن بطوطة [1]، في القرن الثامن الهجريّ ، حيث زار معظم البلاد الإسلامية في عصره و جاءت رحلته تحفة النّظّار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار حافلا عن أوضاع المسلمين .

إنّ هذه الرّحلات ن وتعدد أسماء الرحالة يؤكدان الإشارة إلى كثرة الرّحلات في مختلف العصور و تسجيل أخبار الأمم و أحاديثها .

وقد مثلت هذه الرحلات اتجاهات مختلفة بما فيها من مادّة وفيرة تقترب من الموضوعية لدى ابن جبير،إلى حدود تقترب من الخرافة والغرائبيّة كما تجسّدها رحلة أبي حامد الغرناطي،ورحلة ابن بطوطة إلى حدّ ما .

[1] ـ وردت ترجمته في الدراسة ، ص 113 .

الفصل الأول :

رحلة العبدري في المغرب

الفصل الأول : رحلة العبدري في المغرب

المبحث الأول : تسمية رحلة العبدري في المغرب .

المبحث الثاني : منهم رحلة العبدري في المغرب .

المبحث الثالث : أسلوب رحلة العبدري في المغرب .

المبحث الرابع : مضامين رحلة العبدري في المغرب .

المبحث الخامس : مختارات من رحلة العبدري في المغرب .

المبحث السادس : بعض القصائد من رحلة العبدري في المغرب .

المبحث الأول : تسمية رّحلة العبدري في المغرب :

تعرف الّرحلة العبدرية باسم الّرحلة المغربية،و لكن هذا الاسم لا يطابق المسمى، فليس فيها من أخبار المغرب، ما كانت عليه حواضره و بواديه،نجده في صدرها عندما حدثنا في ذهابه عن بلاد سوس وما حل بها من خطوب مجتاحة و كيفما كانت الحال فهي رحلة قام بها محمد بن محمد بن علي ابن عبد الدار،و إلى هذا الاسم الأخير انتسب،ويعني بها ما كان من شرق سوس،من الجنوب المغربي، في درعة و تافيلالت .. فيقول عنها : " وهي بلاد مات فيها العلم "،و يصف حصونها وأنهارها وعوائد أهلها في الحرب والسلم،و يثني على أخلاقهم .. كما نجده في خاتمتها وقد وصل إلى تلمسان، فاختار الرجوع إلى حاحة عن طريق وجدة و تازة و فاس و مكناسة و آزمور .. وكان المنتظر أن يجرد قلمه لوصف هذه الحواضر لكنه آثر السكوت و مر عليها مر الكرام كما يقولون .. و لم يفته أن يصف خراب وجدة و أطلالها .

والعبدري كما جاء في صدر مخطوطات رحلته : محمد بن محمد بن علي بن أحمد ابن مسعود العبدري الحيحي و ينتهي نسبه إلى بني عبد الدار بن قصّي بن كلاب وإليه نسبته العبدريّ .

وإذا نظرنا إلى تراجم العبدريين في المصادر الأدبية وكتب التراجم المختلفة ، فإننا نجد أن موطنهم بلنسية [1]. و من هنا أتته نسبة البلنسيّ،ولعل هذا الأمر هو الذي حمل بعضهم إلى ردّ أصله إلى الأندلس،بدليل أنّ من رحل من المشرق من بني عبد الدّار سكنوا بلنسية، فمن المحتمل أن يكون أصل قوم الرجل أقاموا في الأندلس،غير أنّ أهله الأدنين رحلوا إلى المغرب وأقاموا في حاحة [2]،و هناك كانت ولادته و نشأته كما سلف،رحالة من بلاد المغرب لم يعرف إلا القليل عن نشأته، أما تاريخ ولادته وتاريخ وفاته مجهولان،فكّل ما نعرفه أنه قام برحلته في الخامس و العشرين من ذي القعدة عام ثمانية وثمانين وست مئة. وكان عندها في عنفوان عمره كما قال له شيخه أبو زيد الدباغ .

---

[1] ـ أحمد بن محمد المقري التلمساني ،نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ،تح إحسان عباس ،ج2، دار صادر بيروت ،1388هـ ـ 1968م ،ص319.

[2] ـ مجلة مناهل العدد 125/5 .

فإذا افترضنا أنه كان حين ذاك بين الخامسة و العشرين و الثلاثين من عمره تكون ولادته في آخر العقد الخامس و أوائل السادس من القرن السابع للهجرة،و نظن أن وفاته كانت بعد سنة سبع مئة ،وهذا قريب مما قدّره الدكتور عمر فروخ ـ رحمه الله ـ إذ جعل وفاته سنة 720 هـ [1]، والفترة الوحيدة المعروفة يقينا من حياته هي المسجلة في رحلته، والتي تكشف عن شخصيته و تبين أنه عالم ملم بجميع العلوم ذو إطلاع واسع،والراجح أن يكون من عائلة علم فقد نعت والده بالشيخ الصالح الخطيب في بداية نسخة الرحلة المخطوطة في الرباط ،وفيما يبدو أنه تلقى تعليمه بمراكش لأنه ارتبط فيها بصلة قوية مع عدد من علمائها ابن عبد لملك المراكشي .[2]

أما من حيث تسمية رحلته إذا عدنا إلى النسخ المخطوطة المتوفرة لدينا من هذه الرّحلة نجد أنّ اسمها لم يكن واحدا في جميع هذه النّسخ، فقد كتب على غلاف نسخة باريس " رحلة العبدري " وهي الرحلة المغربية،وقريبا منه ما كتب على غلاف نسخة تونس " رحلة الشّيخ العبدري " .

وهذا يدلنا على أنّ الرّحلة عرفت باسم صاحبها،وهذا أمر مألوف في الرّحل عموما والمغربية والأندلسية خصوصا،فقد كان يغلب على اسم الرّحلة اسم صاحبها فتشتهر به،ويشيع ذلك على ألسنة الناس حتى يكاد ينسى الاسم الحقيقي للرّحلة، كرحلة ابن بطوطة، و رحلة ابن جبير، ورحلة ابن رشيد، فقلّ من يعرف أن اسم رحلة ابن جبير هو " تذكرة بالآثار عن اتفاق الأسفار".

ولذلك فإننا نرجّح أن يكون العبدريّ قد وضع اسما لرحلته إلا أنّه لأم يحفظ ولم يعيش طويلا،و بقي اسم العبدريّ علما على رحلته .

وقد ذهب هذا المذهب الأستاذ أحمد بن جدّو الذي نشر قسما من رحلة العبدريّ في الجزائر فأشار إلى احتمال أن يكون اسمها الجملة التي ذكرها العبدريّ في مقدمة الرحلة :

" ما سما إليه الناظر المطرق في خبر الرحلة إلى بلاد المشرق ".

---

[1] ـ عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي، ج 6، د.ط ،دار العلم للملايين ،1983م ، ص401 .

[2] ـ أحمد رمضان أحمد ، الرحلة و الرحالة المسلمون ،د.ط ، بيروت ،ص 302 .

أما الأستاذ محمّد الفاسي ناشر طبعة الرّباط فيرى أنّ العبدري سمّى رحلته " الرحلة المغربية " و إنما قصد بها أنّه قطع كل بلاد المغرب في طريقه إلى بلاد المشرق، ولم يركب البحر كما كان يفعل غيره من الرحالين كابن جبير[1].

وقد نقده ابن عبد السلام الناصري في هذا الجانب رغم عدم إنكاره لعلمه وفضله وهو ما لم يعهد في رحالة قبله أو بعده،وتأتي قيمة رحلته في كونها وثيقة سجل فيها حالة العالم الإسلامي العلمية والدينية .

وكان وراء رحلة العبدري سببان حملاه على المضيّ فيها :

الأول ـ سبب ديني : وهو القيام،بفريضة الحج و زيارة الأماكن المقدسة و الاتصال بالمتصوفة والصّالحين،وقد صرح العبدري مرارا بأنه كان ينوي الإقامة بمكة و المجاورة بها،وبأنه قد اكترى المنزل وجهز لوازمه،وصرف الرّكب إلى المغرب لولا حدوث فتنة هنالك أرغمته على الرّحيل عن مكة [2].

الثاني ـ هو رغبته في لقاء العلماء والمشايخ والأخذ عنهم،وكان حريصا على البحث عن السّند العالي فيما يأخذه عن هؤلاء العلماء والمحدثين،ونرى العبدريّ في سؤال دائم عن الأحوال العلميّة والثّقافية في البلاد التي يمرّ بها، فإذا صادف مجموعة من العلماء في بلد من البلاد طرب لذلك وانشرحت نفسه فينطلق لسانه ثناء وحمدا كما حدث معه في تونس وإذا لم يجد هذا النوع من العلماء يهجو بلسانه الذّرب هذه البلاد وأهلها كما صنع في قابس وطرابلس.

أما مدة الرحلة فيبدو أنها استمرت أكثر من سنتين،ويذكر البحاثة حسن حسني عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ أن العبدريّ زار تونس مرتين في طريق ذهابه إلى الحج سنة (688هـ /1289م)،و عند رجوعه سنة (691هـ /1292م). فعلى هذا يكون العبدريّ قد أمضى ثلاث سنوات في رحلته .

[1] ـ الأستاذ محمد الفاسي ، كتاب المحاضرات الثقافية الأسبوعية ، ج 1 ، 1969، ص41.
[2] ـ العبدري ، رحلة العبدري ، تح علي إبراهيم كردي ،ط2 ، دار سعد الدين 1426 هـ ـ 2005 م ، ص10 .

ويؤكد هذا البلويّ حين أورد أبياتا للعبدريّ في رحلته فقال : "أنشدها في تونس في رجب الفرد سنة (690 هـ / 1291 م)[1].

فمن المحتمل إذا أن يكون العبدري قد عاد في هذه السّنة من الحجاز،و أُقام في تونس سنة أخرى كما فعل نظيره ابن رشيد،و يرجح هذا الاحتمال ما ذكره العبدريّ عن أهل تونس،وعن كياستهم وعلمهم فهو قد أعجب بعلمائها و مجالسها العلميّة، ويؤكد ذلك قوله عند دخوله تونس بعد عودته من الحجاز: "و قد أقمت بها مدّة حتى شفيت الحشا العليل،ونقعت بوردها الغليل، وقطعت فيها الغدوّ والأصيل،بمجالسة كلّ فاضل جليل،فما أنفصل عن عالم يوضح الحلك مهما أجاب،إلاّ إلى صالح يحتلب به درّ السّحاب،ولا أغدوعن مجالس أدب كقطع الرياض،إلاّ إلى محفل وعظ يسقي الخدود بالدّمع الفيّاض،فقطعتها أياما من غفلات الدّهر مختلسات،وانتظم لي شمل أنس طالما مني بالشتات،فلم يبق بها شيخ مذكور إلا رأيته ،ولا علم مشهور إلا أتيته " [2].

فالرّحلة إذا ذات هدف مزدوج ككثير من الرّحل الحجازية التي كان أصحابها يقصدون الدّيار المقدّسة لأداء فريضة الحجّ،ويغتنمون الفرصة ليلتقوا الشيوخ في المدن التي كانوا يمرّون بها،ويأخذون عنهم ما يتيسّر لهم من العلوم المختلفة .

وقد نقده ابن عبد السلام الناصري في هذا الجانب رغم عدم إنكاره لعلمه وفضله وهو ما لم يعهد في رحالة قبله أوبعده،وتأتي قيمة رحلته في كونها وثيقة سجل فيها حالة العالم الإسلامي العلمية والدينية .

بحيث أنه لايوجد مؤلفات غير رحلته التي دونها وسماها الرحلة المغربية.

[1] ـ خالد البلوي ،تاج المفرق في تحلية المشرق، تح،حسن السائح ،ج 2، د.ط،المحمدية ، ص 109 .
[2] ـ أحمد رمضان أحمد ، الرحلة و الرحالة المسلمون، د.ط ، بيروت،ص 389 .

المبحث الثاني : منهج العبدري في رحلته و مميزاتها :

أوضح العبدري المنهج الذي سيتبعه في تقييده لرحلته وهوالوصف و السرد والنقد وذلك من قوله [1] :"و بعد فإنّي قاصد بعد استخارة الله سبحانه إلى تقييد ما أمكن تقييده،ورسم ما تيسر رسمه و تسويده،مما سما إليه النّاظر المطرق، في خبر الرحلة بلاد المشرق من ذكر بعض أوصاف البلدان،وأحوال من بها من القطّان،حسبما أدركه الحسّ والعيان،و قام عليه بالمشاهدة شاهد البرهان،من غير تورية ولا تلويح،ولا تقبيح حسن،ولا تحسين قبيح،بلفظ قاصد لا يحجم معرّدا،ولا يجمع فيتعدى المدى، مسطّرا لما رأيته بالعيان ومقّررا له بأوضح البيان،حتى يكون السّامع لذلك كالمبصر ..."

وأضاف قائلا : إنه سيورد ما استفاده من أخبار وقصائد ونكات وغيرها من الأمور التي تتمم هدف الرحلة بحيث يكون مؤلفه هذا مغنيا عن غيره. وأكده على أنه سيؤيد أقواله بالأحاديث التي رواها والآثار التي شاهدها متبركا بإثباتها وإثبات الفضلاء من رواتها .[2]

وقد سار في تقييده على ما رسمه لنفسه،فمن ذلك نقده اللاذع المقدح لأهل المدن التي مر بها بسبب قلة اهتمامهم العلمية فجعل جل اهتمامه منصبا على هذه الناحية .

فأخذ يتقصى ويمعن البحث عن العلماء في كل مدينة يصلها وقد عزا انصراف الناس عن العلم وندرة حامليه إلى "الملك الذي قوض دعائمه وصدعت قوائمه،وقال:إن من ادعاه فاته معناه،مالهم منه إلا أسماؤه وكناه لا يأمن بهم طريق ولا يستفيد بهم غريق،ولا يذكر منهم أصيل في المجد عريق،ولا تندى أكفهم بنائل،ولا تصون عن الابتذال وجه فاضل،ولا ينصف بهم مظلوم،ولا يقرع بأسيافهم ظلوم ".

وبهذا يصور حال البلاد الإسلامية السياسية التي مربها أصدق تصوير كما أصاب في التحقيقات الجغرافية الدقيقة،إضافة إلى وصفه المتقن للمدن فهو في هذه الناحية يضاهي أغلب الجغرافيين الذين اعتمدوا في مؤلفاتهم على النقل

[1] ـ أحمد رمضان أحمد ، الرحلة والرحالة المسلمون، د.ط ، بيروت ، ص 29 .
[2] ـ محمد العبدري ، رحلة العبدري ، تح ،علي كردي ، دار سعد الدين ، دمشق 1999، ص1-2 .

حين أنه اعتمد على مشاهداته،فوصفه للمناظر والمراحل التي مرعليها كان وصفا جميلا محكما عاكفا على تصحيح أخطاء شائعة وردت في مؤلفات سابقة بشيء من التوسع،مع بيان الصحيح منها وإبداء رأيه بالاعتماد على المنطق المرتكز على الحجج العقلية والبراهين التاريخية ويظهر لنا العبدري الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر في محاربته للبدع المخالفة للقرآن الكريم والسنة المطهرة دلالة على فهمه الصحيح للدين .

وقد كان العبدري وفيا لهذا المنهج الّذي ارتضاه لرحلته،مطبقا له،فقد وصف البلدان وصفا دقيقا بمبانيها،وآثارها،وكثيرا ما كان يعّرج على أهلها فيصف عاداتهم وتقاليدهم،ولباسهم، ومستواهم العلمي،ولم يكن متساهلا في نقد ما كان يراه غير طبيعي سواء في أخلاق النّاس أو في عاداتهم،وخصوصا فيما يتعلّق بالنّاحية العلميّة للبلاد التّي كان يدخلها، كقوله عن طرابلس: "... ثم وصلنا مدينة طرابلس،وهي للجهل مأتم،وما للعلم فيها عرس،أقفرت ظاهرا وباطنا،وذمّها الخبير بها سائرا وقاطنا ". ويقول عن تلمسان [1] :

"... وأما العلم فقد درس رسمه في أكثر البلاد،وغاضت أنهاره فازدحم على الثّماد، فما ظنك بها وهي رسم عفا طلله، ومنهل جفّ وشله ...". وهذا ما جعل بعض الباحثين يصف آراء بالتّطرف،لأنّ العبدري لم يترك بلدا دون أن يوجه إليه نقده بصراحة،لا مداراة فيها ولا مواربة،كقوله في أهل الإسكندرية: " ... ومن الأمر المستغرب،والحال الذي أفصح عن قلّة دينهم وأعرب،أنهم يعترضون الحجّاج،ويجرعونهم من بحر الإهانة الملح الأجاج،ويأخذون على وفدهم الطّرق والفجاج،و يبحثون عمّا بأيديهم من مال،ويأمرون بتفتيش النّساء والرّجال ...".

وكذلك ذمه لأهل القاهرة وأخلاقهم :

" إذ وصف القاهرة وأهلها وصف ناقد حاذق،وكان قويّ الملاحظة،فسجل ما رآه من العيوب التي أحسّها هو عند المصريين ".

[1] ـ أبو بكر البغدادي، الرحلة في طلب الحديث ،تح نور الدين العتر ، د.ط ،بيروت 1975،ص 39.

ولعلّ هذا النقد لمصر وأهل مصرهوالذي حمل الدكتور حسين مؤنس على لوم العبدريّ،ونعته بالتّطرف والتّعقيد،و تحامله عليه وعلى رحلته،ومحاولة الحطّ من قيمتها إذ قال:" وأما العبدريّ فقد أنفق ثلاثة أرباع الكتاب في كلام مضحك وساذج لا قيمة له "[1].

والواقع أنّ العبدري كان يتمتع بصفتي الصّراحة والصّدق في كلّ ما يقوله بخلاف غيرة من الرّحالة الذين تحدثوا أيضا عن سوء المعالة من رجال الحدود في مدينة الإسكندريّة،كابن جبير،والبلوي،وغيرهم .

كما لجأ العبدري إلى ذكرالأخبارالتي استفادها،والأشعار التّي أنشده إياها العلماء لأنه كان يكثر من الاستشهاد بالشعر وإيراده له ولغيره،وكثيرا ما يأتي بالقصائد كاملة،على طولها أحيانا .

وقام أيضا بنقل بعض المعلومات المهمّة التّي كان يراها تخدم غرضه من الكتب المختلفة،لتوضيح ما يذهب إليه،وإن لم يشاهدها عيانا على الشّرط الذّي اشترطه نفسه في مقدمة الرّحلة .

ولقي العبدريّ مجموعة من المحدّثين الذّين سمع منهم كثيرا من الأحاديث الشّريفة،وأثبت بعضها في رحلته وأبدى عناية كبيرة بالسنّد العالي، وكما سلف،و كان كثيرا ما يورد الحديث بسنده كاملا .

أما تقسيم الكتاب فلا نكاد نلمح تقسيما واضحا،ولكنّنا نجد فيه بعض الفصول التي كان كثيرا مايلجأ إلى عقدها عندما يريد الوقوف على ظاهرة،والتفصيل فيها تفصيلا يبعد قليلا عن غرض الرّحلة ومنهجها،مستطردا في حديثه عن بلد وما يختصّ به،أوعن تاريخه،كما صنع في الحديث عن عجائب مصر ونيلها،والحديث عن بناء المسجد الحرام، والكعبة و أسمائها.

كما ترجم العبدري للشيوخ الذين لقيهم،وكان كثيرا ما يذكر تاريخ ولادة الشيخ،ورحلته في طلب العلم،ويشفع ذلك أحيانا بالحديث عن بعض طبائع الشّيخ وعاداته .

[1] ـ حسين مؤنس ،تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ،د.ط،القاهرة ،1986،ص520.

وكثيرا ما كان العبدري يستطرد إلى بعض الآراء التي تستوجب منه مناقشة وتوضيحا،كما صنع في مشاركته الفقهية ومناقشته العلمية .

ومن مصادره في تأليف رحلته أنها تحتوي على معلومات جغرافية وتاريخية وأدبية بالإضافة إلى المعلومات الفقهية،لذلك نلاحظ تنوّع مصادره تنوعا كبيرا ككتب السّيرة والحديث والتّصوّف،كتب الجغرافية والرّحل والتّاريخ، والدواوين الشّعرية.

وقد صدر العبدريّ في ذلك كله عن طائفة من المصادر المتنوعة يأتي في أولها:المشاهدة،ثم الرّواية الشّفوية،ثم المصنفات المختلفة،التي نقل عنها.

أما المشاهدة:فقد ظهر أثرها واضحا في المعلومات الجغرافية عن المناطق والبلاد التي مرّ بها،وخصائصها العمرانية،وتضاريسها،وكان وصفه لها وصف شاهد عيان كما يصف لنا السّهول والجبال بأسلوب كلّه إشراق وانفعال يدل على حساسية مرهفة بكل ماهو طبيعي طلق.وهنا يتكشّف العبدري عن جغرافي طبيعي لمّاح يدرك بالنّظرة الواحدة ما لا يدركه غيره بالتأمل الطويل [1] وقد حملت هذه الرحلة طائفة من المعلومات والقضايا التي أخذها المؤلف من صدور العلماء مشافهة،وقيّدها في رحلته فزخرت بها ووعت كثيرا منها مما لم نجده في غير هذه الرحلة،ومن هنا تزداد قيمة الكتاب العلمية ويسمو درجة نحو الجودة و الفائدة.

ولا ريب أن هذين المصدرين كانا المصدرين الأساسيين اللذيّن نهل منهما العبدريّ،وعوّال عليهما في تقييد رحلته،وتسجيل ما اعتلج في صدره عن تلك الرّحلة،وما شاهده خلالها،وما نقله عن العلماء الذين قابلهم .

أما المصدر الثالث فهو المصنفات التي نقل عنها العبدريّ . وقد لجأ إليها مستعينا بها على مالم يشاهده،أوشاهده ولكنه يريد التّوكيد والتّوضيح والاستدلال،وسلك في نقوله عن المصادر طريقين :

الأول : أن يذكر المصدر ثم ما ينقله عنه .

الثاني : أن يورد النّقل،ثم يقول:حكى هذا فلان في كتابه كذا .

[1] ـ حسين مؤنس ، الجغرافية و الجغرافيون في الأندلس ، د.ط ، القاهرة 1986 ، ص 553 .

وهذه دقّة في التّصنيف،إذ يلجأ العبدريّ إلى نسبة الأقوال إلى أصحابها و بهذا يمكننا مراجعة الأقوال في مصادرها الرّئيسية.

ويمكن أن نصنّف مصادره التي نقل عنها ضمن الطّوائف الآتية :

1 ـ المصادر الجغرافية و التاريخية: ككتاب " المسالك و الممالك " لأبي عبيد البكري، ت " 250 هـ/ 1094م"،و" طبقات الأمم " للقاضي صاعد ت " 462 هـ / 1069م ".

2 ـ كتب الحديث المختلفة:الصّحاح وغيرها،إضافة إلى كتاب " غريب الحديث " لأبي عبيد القاسم بن سلام،ت " 224 هـ /839م "،و" مشارق الأنوار " للقاضي عياض،ت " 544 هـ / 1149م " .

3ـ كتب السيرةالنبوية:"كسيرة ابن إسحاق"ت" 151 هـ / 768م"،و"الرّوض الأنف " لأبي القاسم السّهيلي ت " 581 هـ / 1185م " .

4ـ الدواوين الشعرية والمجموعات:"كديوان المتنبي"،و"النابغة"و"الحماسة" ت (429 هـ / 1037م) .

وقد لاحظ المستشرق كراتشكوفسكي كثرة نقول العبدريّ مما دفعه إلى القول[1] :" ومن المؤكد أنه على معرفة بمن سبقوه في هذا الاتجاه .

وهوعندما يضمّن وصفه كلاما من المسعودي أوالبكري إنما يدفعنا بذلك إلى إعمال الحذر بل إلى التّساؤل هل يعتمد وصفه على المصادر المكتوبة دون الملاحظة المباشرة ؟ ".

ولا شك في أن المستشرق الرّوسي ليس محقا في تساؤله وحذره،لأنّ العبدريّ لم يكن يأخذ من المصادر كيفما اتفق،بل كان يعمل الحذر فيما ينقله وكان يناقش في كثير من الأحيان ما ذكره غيره ،ويصوّب أخطاء الذين سبقوه و نقد البكري وصوّب له غير مرة،مما يدلنا على صحّة ملاحظاته ودقّتها،ولاسيما فيما يتعلق بالجانب الجغرافي الذي يعتمد على المشاهدة .

[1] ـ كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي ،تر صلاح الدين هاشم ، ج1، د.ط ، القاهرة 1963 ،ص 368.

المبحث الثالث : أسلوب العبدري في رحلته :

لقد كان أسلوب العبدري المتبع في رحلته هوأسلوب التصنع والتزويق اللفظي والصدق والدقة،فجاء أسلوبه مرسلا بعيدا عن قيود الصنّعة والمناقشة المعتمدة على الحجة والمنطق والهجاء اللاذع،وفي الوقت ذاته امتاز بذوق أدبي، فجاء أسلوبه توجيهيا،وبذلك نرى صاحب الرّحلة لم يلتزم أسلوبا واحدا في رحلته بل زاوج بين أسلوبي الصّنعة والطبع .

1 ـ طغى أسلوب العبدريّ في رحلته الصّنعة والتكلّف فقد فشا فيها السّجع والجناس وما إلى ذلك من المحسنات البديعية التي يكدّ المؤلف فيها دهنه،ويعمل فكره،ويقسو على نفسه ليلائم بينها،ويزوّق ألفاظه وجمله بها .

ولّما كان هذا الأسلوب طاغيا على الرّحلة فإنّنا سنعرض إلى أبرز خصائص أسلوبه الفنّي مؤيّدين كلامنا بشواهد موضّحة ودالّة على المقصد :

أ ـ الإكثار من المحسنات البديعية كالسّجع والطّباق الجناس وهي أبرزها، وهو في السّجع لا يكتفي باتّفاق أواخر الفواصل في الحروف، بل ربّما لجأ إلى الموازنة بين ألفاظ الجملتين فيأتي بسجعات صغيرة ضمن السّجعة الكبيرة كقوله عند وصوله إلى المدينة المنورة [1]:"وفي ضحى يوم الاثنين الثّامن والعشرين من ذي حجّة وصلنا إلى معهد الفضائل المشهورة،ومعقد ألوية الدّين المنشورة،ومحتد المآثر المذكورة،مجمع محاسن الدّارين،ومنبع مفاخرالعصرين،ومطلع سعادة الثّقلين،روضة أزهار الأنام، مشرق أنوار بدر التّمام،وحمى كرم ما حام حوله حام،ولا سام بصفته سام،حمى آدم فآدم عيشه القشف بإكرام،وأولاه مناه،ولولاه لاستمر أذاه ودام،ولا غرو أن كان أباه عليه الله،فالنور من النّبت والقطر من الغمام. كم حوى من فخر محلّ حواه،كم نال من أثر آثر رؤاه،علا على كل شرف شرف إليه منتماه،بل علت به الوهاد على الآكام. محلّ غدا لبدر الفضائل هالة. وضجّت من طول وصفي الأقلام ... يا له محلا هو لسلك الدّنيا واسطة فدع عنك الشّام وحمحصة والعراق وواسطه،وبه تمسي القلوب مقسطّة وقد تحطّ أوزار من قطن أوزار وتمحيّ الآثام " .

[1] ـ أحمد رمضان أحمد ،الرحلة و الرحالة المسلمون ،د.ط ، بيروت ، ص419 - 420 .

فقد جاء المصنّف بثلاث سجعات داخلية قصيرة ضمن السّجعة الكبيرة واعتنى بصياغة الجملة عناية كبيرة ،ووشّى جمله بأنواع البديع وحلاّها بكثرة الفواصل،ما أكسب النص موسيقى داخلية يلّذ بها السمّع وإن كان يظهرعلى أسلوبه التكلّف في اصطياد الجمل ليحصل في نهايتها على سجعه تأتلف مع سابقتها أو لاحقتها .

ويقول واصفا الإسكندرية " مدينة الحصانة والوثاقة وبلد الإشراق اللامع والطلاقة،وطلاوة المنظر وحلاوة المذاق،كلّ عنها ظفر الزّمان ونابه،وملّ منها جيش الحدثان وأحزابه، فلم تبد عليها للزّمان ضراعة،ولا وكست لها في معاملاته سلعة ولا بضاعة،ولا وقفت له موقف ذلّ يوما ولا ساعة،بل ثبتت لحزبه ثبوت البطل وصابرت كيده حتّى اضمحلّ سحره وبطل،ولم تصغ،أذناً إلى ما يوعد به من الخنا والخطل،فهي واقفة وقوف الأطواد سامية بطرف غير كليل، وجيد غير مناد ،آخذة من الكفر وأهله بالمخنق حتى أبدلتهم من الصّافي المروّق الكدر المرنّق، فسامروا الأسف مسامرة النّدى للمحلّق،ودجا عليهم ليل همّ ادلهم بعد نهار سرور تألّق،واظطرم عليهم الأسى واحتدم فحالفوا الندم وقالوا:عوض لا نتفرّق .. " .

فالعبدريّ هنا أسير للصّنعة،يلتزمها التزاما كليّا،ونجده يعنى بالسجع عناية بارزة،ويظهر لهاثه وراء الألفاظ ليحصل على سجعه تلائم سابقتها أو لاحقتها كم رأينا في قوله:"ولا وكست له في معاملاته سلعة ولا بضاعة"فقد أقحم هذه الجملة ليتصيّد في نهايتها هذا المعطوف"ولا بضاعة"ليحقّق الانسجام مع"ضراعة"قبلها و"ساعة"بعدها،ولو استغنينا عنها لما تغيّر المعنى،ولكان التّرتيب كما يأتي: فلم تبد عليها للزّمان ضراعة ولا وقفت له موقف ذلّ يوما ولا ساعة " .

وهو أرشق وأفضل،وكانت الجملة الثانية تأكيدا للأولى وتثبيتا وتبيينا لها[1] ونرى الرّأي ذاته في جملة"فلم تصغ أذنّا إلى ما يوعد به من الخنا والخطل"التي يمكن الاستغناء عنها،فيكون قوله"بل ثبتت لحزبه ثبوت البطل وصابرت كيده حتى اضمحلّ سحره وبطل" .

[1] ـ محمد بن تاويت ،الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى،د.ط ، الدار البيضاء 1982 ، ص394 - 395 .

والعبدريّ يمضي على النّسق من التّلاعب بالألفاظ،ورصف الكلمات والعبارات مما يزيد الأسلوب إرهاقا والمعنى إبهاما وغموضا في بعض الأحيان.

والجناس من المحسنات التي أعجب بها العبدريّ واستهوته،فنراه يسعى وراءه تاما أو ناقصا،ولا يهمّه من ذلك إلا جمال شكل العبارة،وإن لم يكن وراءها طائل فمن ذلك قوله:"محلّ غدا لبدر الفضائل هالة،منزل إن نازله وصّاف بالوصف هاله،قصارى الوصول ولو كنت ابن أبي هاله .. وبه تحط أوزار من قطن أوزار".

وتضييق العبدري على نفسه بلزوم ما لا يلزم من الحروف جعل كثيرا من سجعاته من الجناس الناقص من ذلك قوله:"يا له محلا هو لسلك الدّنيا واسطه .. به تمسي القلوب مقسطة وقد أصبحت قاسطة".

وكان للطباق والمقابلة حظ في أسلوب العبدري كقوله عن مليانة:"وأدى له من حكمة خطلا،وكساه بعد الحبر الأطمار .. وأحل حلاله بعد الأنس بأنسها وحشة العمار".[1]

ب ـ ويكثر العبدري من الاقتباس والتضمين،فقد وهب البراعة في حسن التّصرف في الأسلوب تجلّت في صور الاقتباس والتّضمين من الكتاب العزيز،و الحديث الشّريف والحكم والأمثال،وما كان ينثره من أشعار في كتابه .

فمن أمثلة الإقتباس من القرآن الكريم قوله :"و كنا قد تركنا السلطان على الحركة إلى جهاد عكة ،وقد برز جميع عسكره خارج المدينة،فلما خرج مرض فمات من حينه،فسبحان من(كل شيء هالك إلا وجهه).[2]

ووشح العبدريّ جمله بمقاطع من الأحاديث الشّريفة كانت تتلألأ في أثناء جمله كقوله:"وقد يردع المسيء عن إساءته،ما يرى ويسمع من مساءته ومن التّأديب ما كفّ المرء عن زلله و"نية المؤمن أبلغ من عمله" .

ويلجأ العبدريّ في كثير من الأحيان إلأبيات الشعر أو أجزاء منها و يدخلها في مضمون عبارته ببراعة وإتقان،وربما غمض الأمر على الباحث فلم

[1] ـ أحمد رمضان أحمد،الرحلة والرحالة المسلمون،د.ط،بيروت،ص383

[2] ـ سورة التوبة ،الآية 109

يستطع أن يردّ مضمون العبارة إلى مصدرها كقوله:"فوقف علينا خمسة أشخاص أثّر فيهم الدّؤوب،وعلا على ألوانهم الشّحوب،وعانقوا البراري والقفارحتى أخلصتهم خلوص العسجد بالنّأر وتخوّفهم الخوف المطير للوسن" كما تخوف عود النّبعة السّفن" [1] .

وقوله عن مدينة تونس:"وبها من أهل الرّواية والدّراية عدد وافر يجلو الفخار بهم عن محيّا سافر،وينير علمهم قد"ألقت ذكاء يمينها في كافر" .

ج ـ ولا يجد العبدري بأسا من نثر المنظوم في أثناء جمله كقوله عن مدينة طرابلس " لاترى بها شجرا ولا ثمرا،ولا تخوض في أرجائها حوضا ولا نهرا،ولا تجتلي روضا يحوي نورا ولا زهرا،بل هي أقفر من جوف حمار،و أهلها سواسية كأسنان الحمار،ليس لناشئ منهم فضل لذي شيبة،ولا لذي الفضل منهم هيبة ".

فقد نثر العبدري قول كثير عزّة . [2]

سواء كأسنان الحمار فلا ترى لذي شيبة منهم على ناشئ فضلا

د ـ و من أمثلة تضمينه الأمثال ببراعة قوله : " فإن صحا مرّة فخوطب قال : أنا ضيف عمرو،وأن حذّر بأمرأوخوّف بزيد أوعمرو قال وهو مشتعل الأحشاء بالجمر: دعوني فلا خوف،و" لا حرّ بوادي عوف " .

هـ ـ كما يلجأ العبدري إلى إصطناع ألفاظ العلوم واستخدامها في نثره كألفاظ العلوم المختلفة،ومناسك الحج،والفقه،وأسماء الفقهاء والأعلام من رجال الفكر والشّريعة يقول عن مدينة بونة:"ثم وصلنا إلى مدينة بونة،فوجدناها بلدة بطوارق الغير مغبونة،مبسوطة البّسيط ولكنها بزحف النّوائب مطوية مخبونة". فقد استخدم العبدري مصطلحات العروض من بحور وزحافات وعلل .

2 ـ أما أسلوبه المرسل فنجد العبدريّ يترك نفسه على سجيّتها،وعبارته من دون قيد السّجع ومحسنات البديع،فتجيء واضحة سهلة،جليّة المعاني،بعيدة عن الغموض،خالية من زخارف الألفاظ والتصنع ونلمح هذا في مجالات الوصف

[1] ـ أحمد رمضان أحمد،الرحلة و الرحالة المسلمون،د.ط بيروت،ص 46 .
[2] ـ العبدري ، ديوان العبدري ،ج1،دار النشر المغرب،ص 384 .

والمناقشات العلمية وعند حديثه عن بعض الشّيوخ. من ذلك ما قاله معرّفا ابن خميس التّلمساني [1]:"وما رأيت بمدينة تلمسان من ينتمي إلى العلم ،ولا من يتعلق منه فتيّ السّنّ،مولده عام خمسين،وله عناية بالعلم مع قّلة الراغب فيه والمعين عليه،وحظّ وافر من الأدب .

ويسطنع العبدريّ هذا الأسلوب في ميدان الوصف الذي قلّما يبتعد فيه معظم كتّاب ذلك العصر عن السّجع،يقول في وصف مدينة القدس:"والبلد مدينة كبيرة ومنيعة محكمة،كلها من صخر منحوت،على نشز غليظ،مقطوع بجهات الأودية،وسورها مهدوم،هدمه الملك الظّاهر خوفا من استيلاء الرّوم عليها وامتناعهم بها،والخراب فيها فاش،وليس بها نهر ولا بستان،وحواليها تلال مشرفة،وبها كنيسة معظمة عند النّصارى يحجّونها في كلّ عام .. "

و يقول في وصف المدينة المنورة [2]:"مدينة مليحة ظاهرة الشّراقة و الرّونق،موضوعة في مستو من الأرض على واد به غابة عظيمة من النخل و أرضها سبخة،وبظاهرها حرّة سوداء ووعر،وسورها قد أثّر فيه القدم،وتربته حمراء،ولها جملة أبواب لا أحصي عدتها،والبقيع شرقيّها،وجبل أحد شماليّها،و هو جبل عال إلى الحمرة،وليس بمفرط العلو،وقباء منها في جهة الشّرق تلوح مبانيه و صومعته من المدينة ..." .

فهذه النّماذج من نثر العبدري المرسل توضح أسلوبه الذي كان يتحرر فيه أحيانا من قيود السّجع والصّنعة،ولا نجد مميزات خاصة لهذا النثر،فهو يبسط فكرته بوضوح وجلاء،ويستعين بكل ما يستطيع من ألفاظ معبرة تؤدي المعنى المطلوب .

وخلاصة القول : إن العبدري امتلك ثقافة واسعة في علوم اللغة وفنون البلاغة جعلته يوشي أسلوبه بضروب البديع والبيان،ويمتلك قدرة على تحسين ألفاظه وجمله،فقدّم لنا عبارات مسجوعة مفعمة بالمحسنات البديعية نشعر في قراءتها أن هذا الفن انقاد للمؤلف،وامتلك زمامه،فجاءت صنعته في الغالب أقرب ما تكون إلى السهولة،وما ذلك إلا لقدرة وتمكن وثقافة ساعدت كلّها على أن تظهر

[1] ـ أحمد رمضان أحمد، الرحلة و الرحالة المسلمون ، د.ط ، بيروت ، ص 53 .
[2] ـ المرجع نفسه ، ص 468 .

لنا صنعة العبدري بلبوس حسن ومقبول في الغالب،وهذا ما ذهب إليه كراتشكوفسكي إذ قال[1] :"فعلى الرغم من أن أسلوبه لا يخلو من التكلّف إلا أنه يكتب في نفس الوقت بحرّية ويسر بحيث لا يصل إلى درجة المبالغة الممجوجة التي نلتقي بها لدى ممثلي الأجيال التالية " .

المبحث الرابع : مضامين رحلة العبدري :

تحتوي رحلة العبدريّ على مضامين متشبعة تعسر الإحاطة بها جميعا في هذا المقام،ولذلك سنقصر اهتمامنا على أبرز هذه المضامين،وهي المضمون الجغرافي،والمضمون الاجتماعي،والمضمون الأدبي .

آ ـ المضمون الجغرافي :

تحتوي الرحلات عموما على معلومات جغرافية مهمة،من وصف للمسالك والطرق والبلدان والآثار المختلفة،إضافة إلى ما تصفه من مظاهر بشرية،و طبيعية،واقتصادية .

ورحلة العبدريّ كغيرها من الرّحل،تضم بين دفتيها معلومات قيّمة في هذا الخصوص،فصاحبها يرسم لنا بدّقة الطّريق التي كانت تسلكها قوافل الحجّاج برّا من المغرب إلى الحجاز،ويحدد لنا المراكز التي يحطّ فيها الحجاج رحالهم للاستراحة،ويعدد لنا المناهل التي يتوقّف فيها الحجاج للتّزود بالماء كقوله يعدد المناهل التي في برية ما بين الحجاز ومصر،ويحدد المسافات بينها بدقة:"وأما مناهل هذه البرية فمن البركة إلى السّويس ثلاثة أيام،وهي بئر غزيرة واسعة،وهناك ينقطع بحر الشرق فيدور السالك من ورائه ويتركه يمينا،ولا يزال محاذيا له إلى مكة .. . وماء السوس ملح لا يكاد يساغ لملوحته و خباثة مطمعه، ولكن بالقرب منه على نحو عشرة أميال أو قليلا ماء يقال له:مغبوق،وهو ماء عذب طيب،ومن مغبوق إلى بئر النخل ثلاثة أيام،وهي بئر واحد بكية ماؤها شريب ..." .

[1]ـ كراتشكوفسكي،تاريخ الأب الجغرافي العربي،تر،صلاح الدين هاشم،ج 1،طبعة جامعة الدول العربية1957م، ص 368.

كما تطرق العبدريّ إلى وصف المدن والأنهار وكثير مما شاهده في طريقه،يقول في وصف بلدة آنسا "وأما آنسا ـ جبره الله ـ فهو بلد من فسح منشرح في بسيط مليح،طيب التربة،يغل كثيرا،وبه ماء جار،ونخل وبساتين،وهو آخر بلاد السوس من أعلاه ، متصل بالجبل،مشرف على أرض السوس وكان فيما مضى مدينة كبيرة ". وتحدث عن نهر النّيل،وحدّد أيّام فيضانه وحاول تعليل ذلك .

كما أعار العبدري اهتماما خاصا لمشاهداته في أثناء تجواله داخل البلدان والمدن التي زارها،فوصف آثارها المختلفة،وتحدث عن الأضرحة والزوايا كوصف منار الإسكندرية،وعمود السّواري،والأهرام والبرابي وروضة الإمام الشّافعي،وروضة السّيدة نفيسة [1].

كما وصف المساجد والأسواق،قال في وصف جامع الزيتونة بتونس:"وهذا الجامع من أحسن الجوامع وأتقنها وأكثرها إشراقا،ودائرة الجدر،وشدت إليها حبال متينة في حلق من حديد مثبتة فيها وفي السقوف شدّا محكما ..."

ولم يغفل الإشارة إلى نواح اقتصادية كحديثه عن غلاء الأسعار و رخصها وتعامل عرب برقة بالمقايضة بالسّلع وعدم استخدام النّقود بينهم .

ب ـ المضمون الاجتماعي :

نقف في رحلة العبدري على ملامح اجتماعية مهمّة قد لا نعثر عليها في غيرها،فصاحب الرحلة لم يكن يقصر لقاءه على العلماء،ولكنّه كان يختلط بأفراد المجتمعات في البلاد التي كان يمر بها،ويجالسهم،ويتحدث إليهم،مما جعله يطّلع على أحوالهم الاجتماعية من عادات وتقاليد،وأنماط معيشية .

فقد أخذ على أهل برقة استخدام نسائهم في البيع و الشراء فقال عنهم:"و يستعملون نساءهم في البيع والشّراء،فلا يتوصّل الحاج إلى شراء القوت إلا بعرض مبتذل وحال ممقوت " .

كما يخبرنا عن أزياء نساء برقة بقوله:"ومن العجب عندهم أنّ كل امرأة لابد لها من خرقة تسدلها على وجهها ويسمونها الرقع،وهي تتخلل الناس مكشوفة الرأس والأطراف،حافية القدمين ولا تهتم بستر ما سوى وجهها كأن ليس لها

[1] ـ العبدري ،رحلة العبدري،تح،علي إبراهيم كردي،ط2،دار سعد الدين،دمشق،ص42

عورة سواه،فلا تزال تلك الخرقة عرضة للاتّساخ،ومرصدا لعارض الأوساخ...."[1].

ويحدثنا عن قوم من اليمن يقال لهم السّرو:"جفاة،بداة،مفرط والبداوة عرب الألسنة،أدم الألوان،نحاف الأبدان،أكثرهم يجلب على ظهره،والعري فيهم فاش إلا السترة،ولهم ألفاظ حوشية،والدّينار في لغتهم أربعة دراهم ..."

ويشير العبدريّ إلى بعض الظّواهر الاجتماعية،كالبخل عند أهل تلمسان وجهل القبلة وحسن ظنّهم بأهل الدين،وإيوائهم للغريب وحمايتهم للجار .

ويبدي العبدريّ اهتماما خاصا بالحديث عن البدع التي يعتقدها أهالي البقاع المقدسة كحكمهم على من لا ينفذ من باب الغار بجبل ثور بأنه ولد زنى و يصوّر تزاحم الحجاج على الكعبة و بئر زمزم وغيرها [2].

ولا ينسى العبدري أن يصف لنا الأحوال الأمنية في الطرقات وانتشار قطاع الطرق،ومعاملة الحجاج في الأماكن المختلفة ... إلى غير ذلك من الملامح الاجتماعية التي تستحق دراسة مستقلة .

ج ـ المضمون الأدبي :

غلب الجانب الأدبي على رحلة العبدري،لأن العبدري أديب قبل أن يكون فقيها فقد تضمّنت الرحلة كثيرا من الشعر والنثر والنقد،ما يجعلها مصدرا مهما من المصادر الأدبية المهمة للقرن السابع الهجري .

لن نتعرّض لشعر العبدري،ولكننا سنحاول استعراض ما تضمنته هذه الرحلة من شعر لغيره من الشعراء،فقد ضمت هذه الرحلة نحو سبع مئة وألف بيت من الشعر له ولغيره،ودار هذا الشعر في أغلبية حول المعاني الدينية من زهد ووعظ ومديح نبوي .

[1] ـ محمد العبدري،رحلة العبدري،تح،علي كردي،د.ط،دار سعد الدين،دمشق،1999، ص 409 .
[2] ـ أحمد رمضان أحمد،الرحلة والرحالة المسلمون ،د.ط ،دمشق،ص 389 .

ويعود الفضل لرحلة العبدري في الاحتفاظ ببعض القصائد والمقطعات التي تفرّدت بها،أو التي قلّ أن نجدها في المصادر الأدبية المختلفة،ومن هذه القصائد قصيدة ابن المول التي مطلعها [1].

أنسيم ريقك أخت آل العنبر هذا أم استنشاقه من عنبر

التي يبلغ عدد أبياتها خمسة و ثلاثين بيتا،وقصيدة ابن الفكون في رحلته من قسنطينة إلى مراكش ومطلعها [2] :

ألا قل للسّريّ ابن السّريّ أبي البدر الجواد الأريحيّ

التي تبلغ اثنين و ثلاثين بيتا. والقصيدة الشقراطسية لأبي محمد عبد الله ابن يحي الشّقراطسي ومطلعها:

الحمد لله منا باعث الرسل هدي بأحمد منا أحمد السبل

وعدد أبياتها ثلاثة و ثلاثون ومئة بيت .

والقصيدة النبوية لعلي بن محمد بن منصور المالكي المعروف بابن المنيّر التي مطلعها :

أجب دعوة الرحمن يا صاح تسعد و بادر لفرض الحج غير مفنّد

التي يبلغ أبياتها خمسة و خمسين بيتا ، و قصيدة السّخاويّ النّبوية التي مطلعها :

قف بالمدينة زائرا و مسلّما واشكر صنيع الدمع فيها أن همى

التي تبلغ خمسة وخمسين بيتا،وقصيدته في ذكر خلفاء بني العبّاس التي مطلعها :

سلام على معنى الخلافة و الهدى و حيث الدين و الفضل و العلم

وقصيدة حازم القرطاجني المقلوبة من قصيدة امرئ القيس،إذ عمد القرطاجني إلى تشطير هذه القصيدة ومطلعها :

[1] ـ محمد العبدري ،رحلة العبدري ،تح علي كردي،د.ط ، دار سعد الدين،دمشق 1999م،ص 68- 72 .
[2] ـ المرجع السابق، ص98 ـ 99.

لعينيك قل إن زرت أفضل مرسل قفا نبك من ذكرى حبيب و منزل

وتبلغ ثمانين بيتا،إضافة إلى المقطعات التي لا نعثر عليها في موضع آخر .

كما ضمّت الرّحلة نصوصا نثرية نادرة و مهمّة كخطبة أبي حفص ابن عمر السّلمي(ت603هـ) التي قال في مطلعها "عباد الله،الدّين النّصيحة فخذوها محضة صريحة،هدي الله هو الهدى،ومن اتّبع رسل الله اهتدى فإيّاكم و القدماء ما أحدثوا فإنهم عن عقولهم حدّثوا،أتوا من الافتراء بكل أعجوبة و قلوبهم عن الأسرار محجوبة.الأنبياء ونورهم،لا الأغبياء وغرورهم ...." إلى آخر هذه الخطبة البديعة،وبرنامج محمد بن عبد الله بن داود بن خطّاب المرسيّ(ت636 هـ) الذي عدد فيه أسماء الشّيوخ الذين لقيهم في مرسية وأخذ عنهم ، و بلغ عددهم عشرة شيوخ،وذكر ما أخذه عن كل منهم .

كما ضمن العبدري رحلته بعض رسالة ناصر الدين بن المنيّر في بعض مناهل الحج و قال فيها [1]:"ولقد تجد النفوس إلى تلك القفار أنسا كأنها أوطان وكأن لأشواقها على القلوب سلطان،وإن لتلك الثنّيات صباحة،وإن لمياهها ـ وإن كانت ملحة ـ في القلوب ملاحة .." إلى غير ذلك من النّصوص النثرية النادرة.

وصفوة القول:لا يمكننا إهمال الرحلات باعتبارها مصدرا رئيسيا من المصادر الأدبية لما تقدمه لنا من معلومات أدبية،وتعتمد في الغالب على الرواية، إذ نجدها في بقية كتب الأدب .

[1] ـ أحمد رمضان أحمد ، الرحلة و الرحالة المسلمون ، د.ط ، بيروت ، ص 243 .

المبحث الخامس : مختارات من رحلة العبدريّ :

ذكر تلمسان

ثمّ وصلنا إلى مدينة تلمسان،فوجداناها بلدا به زمانه الزّمان،أخلّت به حوادث الحدثان، فلم تبق به علالة،ولا تبصر في أرجائه للظّمآن بلالة. وقد شاهدت جمعا من الحجّاج ينيفون على الألف وردوها،ووقفوا إلى ملكهفأعطاهم دينارا واحدا وأغرب من هذا ما شاهدته من منصور صاحب ملّيكش،وهو أنّ جماعة من الحجّاج نحو العشرين،وقفوا إليه في محلّته عند بيته ، فكلّموه في عشائهم فرحّب بهم واحتفل في السّلام عليهم،ثمّ أخذ ينادي: يا أهل الدّوار،هؤلاء ضيفان الله،من يحمل منهم إلى بيته واحدا ؟ .وجعل يكرّر ذلك كما يصنع المدرون (أهل المدر)، فلمّا لم يجبه أحد ولّى عنهم،ووراءه جمع كثيف من الفرسان،وهو سلطان تلك النّواحي[1] .

و تلمسان مدينة كبيرة،سهليّة جبليّة،جميلة المنظر،مقسومة باثنتين بينهما سور و لها جامع عجيب مليح متّسع،وبها أسواق قائمة،وأهلها ذو ليانة ولا بأس بأخلاقهم وبظاهرها في سند الجبل موضع يعرف بالعبّاد،وهو مدفن الصّالحين وأهل الخير،و به مزارات كثيرة،ومن أعظمها وأشهرها قبر الشّيخ الصّالح القدوة فرد زمانه أبي مدين ـ رضي الله عنه،ورزقنا بركته ـ وعليه رباط مليح مخدوم مقصود،والدّائر بالبلد كلّه مغروس بالكرم وأنواع الثّمار،وسوره من أوثق الأسوار وأصحهّا،وبه حمّامات نظيفة،ومن أحسنها،وأوسعها،وأنظفها،حمّام العالية،وهو مشهور،قلّ أن يرى له نظير. وهذه المدينة بالجملة ذات منظر و مخبر،وأنظارها متّسعة،ومبانيها مرتفعة ولكنّها مساكن بلا ساك،ومنازل بغير نازل،ومعاهد أقفرت من متعاهد،تبكي عليها فتنسكب الغمام الهمّع،وترثي لها فتندب الحمام الوقّع . إن نزل بها مستضيف قرته بوسا،أو حلّ ضيف كسته من رداء الرّدى لبوسا.

و أمّا العلم فقد درس رسمه في أكثر البلا، وغاضت أنهاره فازدحم على الثّماد. فما ظنك بها و هي رسم عفا طلله،ومنهل جفّ وشله،وقد حضرت بها

[1] - علي ابراهيم كردي ادب الرحل في المغرب و الاندلس د،ط دمشق 2013 .ص123

مدرّسا مذكورا عندهم يقرأ عليه باب التّوكيد من" الجمل"فسمعته يقول:"كلا للمذكرين،وكلتا للمذكّرتين ". وأعربوا قول ابن دريد [1]:

(الرّجز)

هم الذّين جرّعوا مّـن مـا حلـوا ....

بأنّ:هم:مبتدأ،والّذين:مبتدأ ثان،وجرّعوا: خبره،والجملة في موضع خبر الأوّل،وهذا قليل من كثير،وصبابة من غير غدير.

ذكر برنامج شيوخ ابن خطاب المرسي

" يقول محمد بن عبيد الله بن داود خطّاب الغافقي ـ و فّقه الله لقيت من الشّيوخ ببلدتي مرسية [2]ـ أعادها الله تعالى للإسلام ـ الفقيه الأستاذ النّحويّ أبا بكر محمّد بن محمّد المعافريّ الشّهير بالقرشيّ،وقرأت العربيّة عليه،والفقيه الأستاذ النّحويّ المسنّ أبا عليّ الحسن بن عبد الرّحمن الكنانيّ الشّهير بالرّفاء وقرأت عليه"مقامات الحريريّ"،ومن شعر المتنبّي،وأكثر"الحماسة"،والفقيه العالم المسنّ أبا بكر محمّد بن محرز الزّهريّ وقرأت عليه أكثر"التّلقين" للقاضي أبي محمّد عبد الوهّاب [3]،وسمعت عليه دولا كثيرة من"الموطّأ"،وقرأت عليه بلفظي" كتاب التّرميذي " كلّه،و سمعت عليه "سنن أبي داود" بقراءة صاحبنا الفقيه أبي بكر بن حبيش،وسمعت عليه"السّير"بقراءة أبي الحسن الرّومي المعروف ببلدنا بسحنون،وأنشدني جملة من نظمه،من ذلك قوله لابنه الأصغر أبي عامر:

(الخفيف)

يـا بنـيّ و لـيس مثلـي يـسهو عند وعـظ يـرويـه مـثلـك عنـه

أنت ضـيف الـدّنا فأقلـل عيوبـا من قراها واخش الرّدي من لدنه

[1] ـ المرزباني،معجم الشعراء،ج5،ط2،دار الناشر مكتبة القدسي دار الكتب العلمية،بيروت،ص13 ـ 42.

[2] ـ الحميري،محمد بن عبد المنعم،الروض المعطار في خبر الأقطار،تح إحسان عباس،ج3،دار صادر بيروت ـ لبنان،ص 539.

[3] ـ عبد الوهاب بنعلي بن نصير،تاريخ قضاة الأندلس،تر،أبو الحسن النباهي،د.ط،بيروت،ص240.

ولقيت الفقيه الإمام العالم أبا المطرّف أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزوميّ ولازمته مدّة إقامته بمرسية،وقرأت عليه"التّنقيحات"للسّهر وردي و"مختصر المستصفى" للقاضي أبي الوليد بن رشد المسمّى بـ"الضّروري"،و قرأت عليه بعض"التّلقين"وكان له عليه كلام حسن،وتنبيه على مواضع منه لم أر من تفطن لها سواه ،ولقيت الفقيه القاضي المسنّ أبا عيسى محمّد بن أبي السّداد وقرأت عليه بلفظي" شمائل النّبيّ"،و"كتاب مسلم بن الحجّاج "من أوّله إلى آخره،و"كتاب التّرميذي"[1]،وسمعت بقراءة غيري عليه كثيرا من الكتب،وكان يروي عن الخطيب أبي القاسم بن حبيش،ولقيت الفقيه أبا بكر ابن جهور الأزديّ،وسمعت عليه بقراءة أبي القاسم بن نبيل بعض كتاب مسلم بن الحجّاج رحمهم الله أجمعين.

وممن لقيته من الرجال الصلّحاء بمرسية ـ نفع الله بهم ـ الفقيه أبو العبّاس الطّرسونيّ [2]كان رحمه الله ـ أحد الزّهّاد، والفقيه أبو عبد الله السّمار المؤدّب،وكان أحدّ الفضلاء الزّهاد،والفقيه الخطيب بجامع مرسية أبو عبد الله بن فتح،والفقيه الورع أبو عبد الله النّجّار،كان شديد الانقباض عن عشرة النّاس،وتؤثر عنه الورع أخبار حسان،رحم الله جميعهم ورضي عنهم " .

وصف تونس و أهلها

" وما زالت مدينة تونس ـ كلأها الله ـ دار ملك و ضخامة،وهي الآن دار مملكة إفريقية على ضعف المملكة بها،وانتهائها إلى حدّ التّلاشي،ومع ذلك فقد أربت على البلاد في كلّ فضيلة،وما رأيت لأهلها نظيرا شرقا وغربا،شيما فاضلة،وخلالا حميدة،ومعاشرة جميلة،وقد كان الأخلاق بمن شاهد أخلاقهم أن يطنب في وصفهم،ويضرب عمّن لم يمحضهم الوداد وينصفهم،إذ ذاك من بعض واجبهم،وأقلّ مراتبهم،ولكنّ الزّمان لا يعين على توفيه الحقوق،ولا يتعمّد بالفراغ إلاّ أهل العقوق،وناهيك من بلد لا يستوحش به غريب،ولا يعدم فيه كلّ فاضل أديب،يبدؤون من طرأ عليهم بالمداخلة،ويخطبون منه لفضل طباعهم المواصلة، فهو منهم بين أهل مشفق،ورفيق مرفق،وقد كان بعض أخيار طلبتها وحسابهم

[1] ـ ابن خلكان،وفيات الأعيان،تح،إحسان عباس،ج8،د.ط،بيروت،ص268.

[2] ـ ابن عبد الملك المراكشي،الذيل والتكملة لكتابي الموصول و الصلة تح إحسان عباس وابن شريفة،ج1،د.ط،بيروت،ص391.

لازمني مدّة الإقامة بها وترك لأجّلي مهمّات أموره،وعرّفني بفضلائها،وكان لا ينفصل عنّي عامّة النّهار،وكثيرا ما كنت أمرّ بمن لا يعرفني من أهلها،فأسأله عن الطّريق،ويدلّ بي،وهذا من أغرب ما يسمع من جميل الأخلاق(وذلك فضل الله يوتيه من يشاء). ولولا أنّي دخلتها لحكمت بأنّ العلم في أفق الغرب قد محي رسمه،ونسي اسمه،وضاع حظه وقسمه،ولكن قضى الله بأنّ الأرض لا تخلو من قائم له بحجّة،يرى سبيل الحقّ ويوضح المحجّه،وما من فنّ من فنون العلم إلاّ وجدت بتونس به قائما،ولا مورد من موارد المعارف إلاّ رأيت بها حوله واردا و حائما .

وبها من أهل الرّواية والدّراية عدد وافر،يجلو الفخار بهم عن محيّا سافر، و ينير علمهم و قد :

.... ألقت ذكاء يمينها في كافر

وصف أخلاق أهل مصر[1]

" ... وقد رأيت فيهم من قّلة الحياء ، و عدم التّنزه عن الخنا و الفحش. ومن قلّة التّستّر عند قضاء الحاجة و الأكل ما تقضّيت منه العجب.وأمّا بغضهم للغريب،وتمالؤهم على ذلك،فأمرّ لا يحيط به علما إلاّ من عاينه،وقد رأيتهم في طريق الحجاز إذا سمعوا مهارشة شخص منهم لغريب يتجارون إليه من كلّ ناحية كما تصنع الكلاب إذا رأت كلبا غريبا بينها. وما رأيت بالمغرب الأقصى والأندلس على شكاسة أخلاقهم،ولا بإفريقية و أرض برقة و الحجاز والشّام فريقا من النّاس أرذل أخلاقا،وأكثر لؤما وحسدا،ومهانة نفوس،وأضغن قلوبا ، و أوسخ أعراضا،وأشد دمامة و خيانة ،و سرقة و قساوة و أجفى للغريب من أهل هذه المدينة،ناهيك من قوم جعلوا الخنا شعارهم والحسد المؤرّث للضّنا دثارهم . فترى الشّيوخ منهم يتهارشون في الطّرقات،ويقطعون بلعنة أسلافهم فسيح الأوقات. وقلّما يصدر من صبيناهم ما يصدر منهم و لا يؤثر عن أطفالهم ما يؤثر عنهم،وقد قيل فيهم : إنهم أعقل النّاس صغارا و أحمقهم كبارا . حكاه أبو عبيد

[1] ـ علي إبراهيم كردي،أدب الرحل في المغرب و الأندلس،د.ط،دمشق 2013،ص131

البكريّ في كتابه المسالك. وحكى فيه أيضا أنّ أبا دلامة [1]جاء إلى مصر ثم رجع فسئل عنها فقال : ثلثها كلاب،وثلثها تراب،وثلثها دواب،فقيل له:فأين النّاس؟

فقال : في الثّلث الأوّل و قلّما ترى من أهلها رجلا صافي اللّون إن كان من غيرها .ولا رجلا طلق اللسان واللّكنة فيهم فاشية،وجمهورهم يجعل القاف و الكاف همزة. و قد سمعت شخصا منهم في التّلبية يقول:اللّهم لبّيك،و يجعل كافاتها كلّها همزات فلو سمعته سمعت كلاما مضحكا .

وأما العقوق بينهم فمتعارف ، كان معنا في طريق الحجاز شخص منهم حجّ بأمّه ،فكان إذا اغتاظ عليها يقول لها : لعنك الله، ولعن الّذي آواك ـ يعني أباه ـ و ذلك بعد ما حجّ بها . وسمعت شخصا منهم ينادي رفيقه في الرّكب، فلّما أتاه لعنه و لعن أباه ، و قابله الآخر بمثل ذلك ،وتهارشا زمانا ثمّ قعدا يأكلان .

أسماء مكة

قال الله جل ذكره :"وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ" [2].فاختلف في هذين الاسمين ، فقيل : هما واحد،والباء تبدل من الميم . وقيل: مكة بالميم اسم البلد،و بالباء موضع البيت ، وقيل بكة بالباء بطن مكّة، وقيل موضع المسجد والبيت، هذا كلّه متقارب،واختلف في اشتقاق الاسمين فقيل : بكة بالباء مشتقّة من الازدحام،وأنشد أبو عبيدة [3]:

(الرّجز)

إذا الــشّريب أخذتــه أكــه فخلّــه حـتّــى يبــك بكــه

و قيل : من بكّ العنق و هو التواؤها ، لأنّه ما فجر فيها أحدّ في الدّهر الأول إلاّ أصبحت عنقه ملتوية .

[1] ـ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، تح إحسان عباس ،ج 2، د.ط ، بيروت 1977 ، ص 320 .
[2] ـ سورة الفتح ، من الآية 24 .
[3] ـ ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي ، في معجم البلدان ،ج 5 ، ط 2 ، بيروت ، ص181 .

قلت : و يحتمل أن يكون من بكّ الشّيء إذا فرّقه ، لتفرّق النّاس منها في كلّ جهة عند فراغ الحجّ ، قال امرؤ القيس:

(الطويل)

و لله عينا من رأى من تفرق أشتّ و أنأى من فراق المحصّب

و أما مكة بالميم فقيل:هي من قولهم : امتكّ الفصيل ما في ضرع أمّة إذا مصّه مصّا شديدا،سمّيت بذلك لاجتذاب النّاس من الآفاق،أو لاستقصائها محو الذنوب ن أو لقلّة مائها [1]، حكاه ابن دريد. أو لأنها تنقص من ظلم فيها ، و قيل:هي من المكاء وهو الصّفير،قال عزّ وجلّ :" وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً" [2]، حكاه الزّجاجيّ،ولا يصحّ لأن المكاء معتلّ من مكا يكمو إذا صفر، ومكّة من المضاعف .

وقيل:سميّت بذلك لارتفاع الجبال عليها،من المكوك وهو مكيال مرتفع الجوانب قال الزّجاجي: وقد تكلمت به العرب وجاء في أشعار الفصحاء .وهذا بعيد متكلّف لإخفاء بضعفه،وقيل: مكّة من الإمتكاك وهوالازدحام مثلما تقدّم فيها بالباء .

ولها أسماء مكّة وبكّة،وصلاح معدول،والعرش،والقادس،والمقدّسة،والنّسّاسة والنّاسّة بنون وسين مهملة،والباسّة بالباء،والبيت العتيق،وقيل:هي الكعبة وأمّ رحم بضم الرّاء،وأمّ القرى، والحاطمة،والرّأس،مثل رأس الإنسان،والبلدة،وقيل هي منى،والقرية القديمة،والبلدة الحرام،حكاها عياض في مشارقة. فصلاح معدولة عن صالحة،والعرش: السّير لأنها أرفع البلاد ، و القادس و المقدّسة من الطهارة و النّساسة من نسّ الشّيء أي أذهبه ، حكاه السّهيليّ لأنّها تذهب الظّلمة و تبيدهم، وبالباء من البسّ و هو الفتّ بمعنى الأوّل،والعتيق : القديم ،وقيل : لعتقها من تملّك الجبابرة عليها أو من تجرهم فيها .

والرّحم : الرّحمة ، و أمّ الشّيء ،أصله أي موضع الرّحمة . وأمّ القرى أصلّها،لأنّ الأرض دحيت من تحتها،قاله الهرويّ . والحاطمة مهلكة الظالمين.

[1] ـ عياض بن موسى ،مشارق الأنوار على صحاح الآثار ج 1 ، دار النشر المكتبة العتيقة ودار التراث، ص 392 .

[2] ـ سورة الأنفال ، من الآية 35 .

والرّأس معروف لأنها في البلاد كالرّأس في الجسد . والبلدة الحرام : لاحترام الله عزّ وجلّ إيّاها و تعظيمه لها ".

قبة الصخرة

وفي وسط فضاء المسجد قبّة الصّخرة[1]،وهي من أعجب المباني الموضوعة في الأرض و أتقنها،وأغربها،قد نالت من كل حسن بديع أوفر حصّة،وتلت في الإتقان ظاهرة ونصّه،ونصّه،وتجلّت في جمالها الرّائع كعروس حسناء جليت على منصّة . قامت مشرفة متبرّجة على يفاع. تصرّح وتلّوح بالإعراب والإبداع،وتفصح بما يشرح عن فضيلة الصناع،حسّنها الأوّل فاستحسنها الآخر وانعقد الإجماع ، تنازع الكمال منها الظّاهر والباطن، لما سلما معا من كل عائب شائن،واجتمعت في كليهما أشتات المحاسن. فإن أدلى الظّاهر بحجته إلى حكم الطّرف حكم له،وإن أعرب الباطن عن فضائله قال له الطّرف: ما أكمله . تناصف الحسن،وتماثلت الأدلّة،فليس إلاّ أن يقال في جواب المسألة أيّهما جاء أولا عمل عمله .

وصفتها أنها قبة مثمّنة على نشر في وسط المسجد،ويطلع إليها في درج من رخام قد أحاط بها. و لها أربعة أبواب،والدّائر مفروش بالرّخام المحكم الصّنعة،وداخلها كذلك. و في ظاهرها و باطنها من أنواع التّزويق ما يقصر عنه الوصف .

أما الذّهب فما رأيته مبتذلا في شيء كابتذاله في هذه القبّة،حتّى لقد غشّي به أكثرها ظاهرا و باطنا،فهي تتلألأ ساطعة الأنوار،كلمعان برق أو اشتعال نار،وقد ذهّب الأعلى من ظاهرها إلى حدّ التّسقيف وألبس سقفها ليّن الرّصاص المحكم الإلصاق حتّى صار جسدا واحدا .

أمّا باطنها فيكلّ عن وصفه اللّسان،ويحار في حسنه إنسان الإنسان تبهر النّاظر أشعّته الباهرة ، و تستوقف الخاطر محاسنه الظّاهرة . أسكرت العقول فصارت لها عقالا،وأكلّت الألسن فما وجدت مقالا،حسنا وكمالا،فقطعت لسان من يغمز،وراقت حلى وأوصافا فأسفرت فؤاد المتحرّر،إن وعدت الإعجاب خبرا فهي مشاهدة تنجز،أو افتخر مكان لتحدّث من حسنها بالمعجز :

[1] ـ انظر : وصف قبة الصخرة و المسجد الأقصى في الأنس الجليل 2 / 16 .

(الكامل)

شـرك العـقول و نزهـة مـا مثلهـا للنـاظريـن ، و عـقلـة الـمـستوفـز

و في وسط القبّة الصّخرة[1]التي جاء ذكرها في الآثار،وأنّه عليه الصلاة والسّلام عرج عنها إلى السّماء . وهي صخرة صمّاء . علوّها أقلّ من القامة، و تحتها شبه مغارة على مقدار بيت صغير يعلو قدر القامة،و ينزل إليه في درج ، وقد هيّئ له محراب و سوّي و أتقن .

وعلى الصّخرة شبّاكان محكمان يغلقان عليها،أحدهما،وهوالخارج من خشب و الآخر من حديد أو صفر محكم العمل،بديع الصّنعة .

وفي القبّة صورة درقة كبيرة حديد معلّقة هنالك،وأظنّها كانت مرآةولكنها قد صدئت وزال صقالها،والعوام يقولون: إنّها درقة حمزة،واشتهر عندهم هذا الزّور حتّى صار في حدّ المقطوع به .

المبحث السادس : بعض القصائد في رحلة العبدري

[1] ـ انظر وصف الصخرة الشريفة في الأنس الجليل 2ج ،ص 16 .

قصيدة ابن المولى [1]

أنسيم ريقك أخت آل العنبر هذا أم استنشاقة من عنبر
و نظام ثغرك ما نرى أم لمعة من بارق أم معدن من جوهر
أودعتني،و جمال وجهك،حرقة ألهبت جمرتها بطرف أحور
قولي لطرفك أن يرد عن الحشا لذعات نيران الهوى ثمّ آهجري
وانهي جمالك أن يصيب مقاتلي فتصيب سطوة من معشري
إنّي من القوم الّذين جيادهم هبّت على كسرى بريح صرصر
فأثرن نقعا لما انثنت أثناؤه حتى تشتّت فوق هامة قيصر
آباي من كهلان أرباب الورى وبنو الملوك عمومتي من حمير
ضربوا بلاد الصّين بالبيض الّتي ضربوا بها كسرى صبيحة تستر

قصيدة حديقة الأزهار للقرطاجني[2]

لعينيك قل إن زرت أفضل مرسل قفا نبك من ذكرى حبيب و منزل
و في طيبة فانزل ،و لا تغش منزلا بسقط اللّوى بين الدّخول فحومل
وزر روضة قد طالما طاب نشرها لما نسجتها من جنوب و شمأل
و أثوابك اخلع محرما و مصدّقا لدى الستّر إلاّ لبسة المتفضّل
لدى كعبة كم فاض دمعي لبعدها على النّحر حتى بلّ دمعي محملي

[1] ـ المرزباني ، معجم الشعراء ،ط2 ، دار الكتب العلمية ن بيروت ، ص 242 .
[2] ـ د . علي كردي ، أدب الرّحل في المغرب و الأندلس ، د.ط ، دمشق 2013 ، ص 191 .

فـيا حـادي الآمـال سر بي و لا تـقل: عقرت بعيري ـ يامرأ القيس ـ فانزل

فـقد حـلفت نفـسي بـذاك و أقـسمت عـلـيّ وآلــت حـلـفـة لـم تــحـلّـل

فـقـلت لـها : لاشـكّ أنّــي طـائع و أنّـك مـهما تــأمري القـلب يفعل

و كم حملت في أظهر العزم رحلها فـيا عـجبـا مـن رحـلـها الــمتحمّـل

و عاتبت العجز الّذي عاق عزمها فـقالت : لك الـويلات إنّك مرجـلي[1]

[1] ـ د ، علي كردي ، أدب الرّحل في المغرب و الأندلس ،د.ط ،دمشق ، 2013 ، ص 191 .

الفصل الثاني:
رحلة أبي حامد الغرناطي في الأندلس

الفصل الثاني : رحلة أبي حامد الغرناطي في الأندلس .

المبحث الأول : تسمية رحلة أبي حامد الغرناطي في الأندلس .

المبحث الثاني : منهج رحلة أبي حامد الغرناطي في الأندلس .

المبحث الثالث : أسلوب رحلة أبي حامد الغرناطي في الأندلس .

المبحث الرابع : مضامين رحلة أبي حامد الغرناطي في الأندلس .

المبحث الخامس : مختارات أبي حامد الغرناطي في الأندلس .

المبحث السادس : بعض القصائد في رحلة أبي حامد الغرناطي في الأندلس .

المبحث الأول :تسمية رحلة أبي حامد الغرناطي في الأندلس :

أبو حامد وأبو عبد الله ابن الربيع محمد بن عبد الرحيم بن سلمان بن ربيع بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الصمد المازني القيسيّ الغرناطيّ الأندلسي[1]،القيرواني الأصل ، الرحالة الجغرافي، ولد سنة (473هـ/1080م) في غرناطة،ونشأ فيها ،واحد من مشاهير الرحالة والجغرافيين الأندلسيين وتلقّى علومه الأولى على مشايخها ولا نكاد نقف على معلومات ذات شأن عن نشأته و شبابه،ولم تسعفنا المصادر بما يفيد في جلاء ذلك،وأول إشارة نقف عليها هي مغادرته الأندلس حوالي سنة (500هـ/1106 م)،وكان في السابعة والعشرين من عمره ـ ووصوله إلى المغرب الأقصى،وتنقله بين حواضرها،ثم وصوله إلى إفريقية "تونس" وزيارته بعض معالمها،ثم ركب البحر من [1]تونس سنة (511 هـ/1117م) إلى سردانية،ووصف لنا بركانا ثار فيها،ثم انتقل إلى الإسكندرية و لقي بعض العلماء فيها،ووصف لنا منار الإسكندرية ثم تحوّل إلى القاهرة سنة 512هـ/1118م فوصف جامع عمرو بن العاص،وأهرمات مصر،وكثيرا من آثارها وعجائبها،وتحدث عن مقياس النيل وفيضانه وهروب الزواحف والهوام و دخولها على الناس في القرى .

وبقي أبو حامد في مصرحتى سنة (515 هـ/1121 م)،ثم توجّه إلى دمشق،ودرّس الحديث فيها ،ثم وصل إلى بغداد سنة (516هـ/1123م)،وأقام فيها أربع سنوات تقريبا.

وفي سنة (524هـ /1130 م)نجد أبا حامد في إيران،و يتّجه شرقا ليصل إلى باب الأبواب و هو أقصى ما وصل إليه الفتح الإسلامي شرقا على يد مسلمة بن عبد الملك أيّام الأمويين،ويتكلّم على بعض المظاهر الاجتماعية و الاقتصادية لأهل تلك البلاد .و زار كثيرا من الأقاليم مثل خوارزم عن طريق بلاد البلغار و جنوب روسيا،واستقر بها مدة طويلة اتخذ بها أمّهات أولاد وأنجب بنين و بنات.

ونجده سنة(530هـ/1135م) في بلاد البلغار، ثم يكون في سنة(545هـ /1150م)في المجر فيصف مدنها ورخاءها،وبعدها رحل أبو حامد إلى خوارزم

[1] ـ حسين مؤنس ،تاريخ الجغرافية و الجغرافيين في الأندلس،تر الوافي ،ط 1 ، بيروت ، ص 303.

وخرج منها سنة 546هـ/1151م متوجها إلى الحج مارا ببخارى و نيسابور،و الريّ،وأصفهان،والبصرة،فأدى الفريضة وتوجّ إلى بغداد فالموصل سنة 556هـ/1161م ، ثم توجّه إلى حلب فأقام فيها سنة 560هـ ، /1165م ، ثم انتقل إلى دمشق حيث أدركته المنية سنة 565هـ /1169م عن اثنتين و تسعين سنة .[1]

رحلة أبي حامد الغرناطي :

في القرن السادس الهجري ، الذي يمثل إضافة حقيقية للجغرافيّين و أدب الرّحلات يقول جمال حمدان : " و يجوز أن نعدّه سندباد بحر و بر معا أو ابن الأندلس ، فهو ليس كاتب رحلة ،و لا جامع عجائب وغرائب ،ولا جغرافيا خالصا ، بالطبع ، بل الثّلاثة معا .[2]

وقد دوّن أبو حامد الغرناطي كل مشاهداته و خبراته في كتابين الأول " تحفة الألباب ونخبة الإعجاب "،والثاني " المعرب عن بعض عجائب المغرب"،حيث اتجه اتجاها خطيرا،نحو تصوّر العجائب والغرائب بطريقة خرافيّة غير معقولة ،غير أنّ بعضها اليوم يرى معقولا .

1- المعرب عن بعض عجائب المغرب :

ألّفه بعد وصوله إلى بغداد سنة(556هـ/1161م)وأهداه إلى الوزير عون بن هبيرة ،وخصصّه للحديث عن العجائب المنتشرة في مدن المغرب الإسلامي، فذكر كهفا بجوار مدينة لوشة فيه سبعة أشخاص نيام منذ زمن قديم يشبهون أهل الكهف. و تكلّم على كنيسة قرب جبل الثّلج المطل على مدينة غرناطة بجوارها شجرة زيتون عجيبة تزهر وتثمر الزيتون تنضجه في يوم واحد من أيام الربيع.

و يصف مدينة النحاس و عجائبها ،و قنطرة طليطلة ،وتفّاح شنترة ،و البحر الأسود المعروف ببحر الظّلمات ،ومجمع البحرين ويتحدّث عن عجائب مخلوقاته .

---

[1] ـ د. علي إبراهيم كردي ، أدب الرّحل في المغرب و الأندلس ، د.ط ، دمشق 2012 ،ص 28.
[2] ـ الصفدي ، الوافي بالوفيات ، تح أحمد الأرناؤوط و تركي مصطفى ، د.ط ، دار إحياء التراث ، بيروت 1420 هـ - 2000م

ثمّ يترك الأندلس و يتحدّث عن عجائب الجبال،و يذكر عجائب جبل اللّكام، وعجائب جبل السّراة في بلاد العرب ،وجبل الرّاهون بسرنديب الذي نزل عليه آدم عليه السّلام .

و يخصّص بابا من الكتاب للحديث عن أوقات الصّلاة ،ومعرفة الفيء و الزّوال، ثم يتبع ذلك بفصل عن ذكر ساعات اللّيل والنّهار في الزّيادة والنّقصان بحسب شهور السّنة .

ثم يعود أبو حامد إلى العجائب فيصف بركانا في جزيرة صقلية،وينتقل إلى ذكر الإسكندرية و بعض عجائبها،فيصف منار الإسكندرية بإسهاب قبل تهدّمه ،ثم يذكر عجائب مصر كالأهرمات و البرابي .

و يستطرد إلى ذكر فصول فلكية فيتكلّم على المجرّة و طريقة الاستدلال بها على القبلة،ويتحدث عن صفات الأرض وطولها وعرضها،ويختم كلامه الجغرافي بالحديث عن الأقاليم السبعة،ويصف الجبال ويحدّد المسافات و المراحل بينها و الطرق و المسالك فيها .[1]

2 ـ كتاب تحفة الألباب و نخبة الإعجاب :

" فالتحفة " كتبه أبو حامد الغرناطي بعد الفراغ من كتابه السابق " المعرب" وذلك عام (557هـ/1162م) ، بعد خروجه من بغداد واستقراره في الموصل،بعد أن طوّف في أصقاع كثيرة من بلدان المغرب والمشرق ليجمع فيها ما شاهد من عجائب الدّنيا .

قسّم أبو حامد الغرناطي كتابه في مقدّمة وأربعة أبواب،فالمقدمة للبيان و التمهيد،والأبواب لتتمةّ المقصود .

و جعل الباب الأول: في"صفة الدّنيا و سكاّنها من انسها و جانها " أي يتحدث باختصار عن الأرض،المعمورة منها والمغمور،وما تحتويه من أصناف الإنس والجن،والحيوان والنبات .

[1] ـ د. علي إبراهيم كردي ، أدب الرّحل في المغرب و الأندلس د.ط ، دمشق ، ص 28 .

و خصص الباب الثّاني : في" صفة عجائب البلدان وغرائب البنيان "، أي بادئا بإرم ذات العماد التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ،والمنسوب بناؤها إلى شدّاد بن عاد و ما أنفقه في بنائها من المعادن الثمينة،ولكنوز النادرة،ليجعل منها بديلا عن الجنة التي كان يعده بها عليه السلام بعد الموت،ثم اختفاء هذه المدينة في طرفة عين عقابا لشدّاد على طغيانه و كفره . ثم يذكر قصة مدينة النحاس التي بنتها الجن لسليمان.

والباب الثالث : فيشمل " صفة البحار وعجائب حيواناتها،وما يخرج منها من العنبر والقار،وما في جزائرها من أنواع النفط والنّار ".

والباب الرابع : في صفة الحفائر والقبور،وما تضمّنت من القفار إلى يوم البعث والنّشور ".[1]

وقد جاء الكتاب حافلا بأمثلة العجائب التي جمعها المؤلف ليبرز من خلالها عظمة الخالق،فالأساطير والخرافات تظل أمتع ما يوجد في التّحفة،حيث تأخذ القارئ وتشدّه إليها شدا،فلا يجد مناصا من متابعة القراءة والاستمتاع بالحكايات التي تنأى عن الواقع اليوميّ،بل إنّ المفارقة الكبرى في تحفة أبي حامد الغرناطيّ،أن يضغط من خلال هذا الجانب على القارئ حتى يلتزم بواقعيّة ما يروى،فالجانب الأسطوريّ و الخرافيّ يطغى على الواقعيّ .

ولعلّ قيمة رحلة الغرناطيّ مرتبطة إلى حدّ كبير بالجانب الأسطوريّ و الخرافيّ الذي يأبى الرّحّالة أن ينعته بهاتين الصفتين،إذ يحاول أن يقنع المتقبّل

بصحة ما يرويه له فيذهب إلى أنّ عدم التّصديق لما يرويه يعزى إلى ضعف في نسبة العقل لدى المتقبّل من جهة ،وإلى الجهل من ناحية ثانية " لأنّ يعرف الجائزوالمستحيل يعلم أنّ كلّ مقدور بالإضافة إلى قدرة الله تعالى قليل ، فالعاقل إذا سمع عجبا جائزا استحسنه ولم يكذب قائله ولا هجّنه ،والجاهل إذا سمع ما لم يشاهد قطع بتكذيب وتزييف ناقله،وذلك لقلّة بضاعة عقله،وضيق باع فضله".

[1] ـ د.علي إبراهيم كردي ، أدب الرّحل في المغرب و الأندلس ، د.ط ، دمشق ، ص 29 .

المبحث الثاني : منهج أبي حامد الغرناطي في رحلته :

التزم المؤلف بالمنهج الذي وضعه لتأليف كتابه التزاما دقيقا على عكس كتابه الأول الذي اتصف بالاستطراد وتداخل الموضوعات .

ولكن كتاب تحفة الألباب خليط عجيب من المفيد وغير المفيد،ومن الواقعي والأسطوري مما يدخل في نطاق العلم،وما يدخل في نطاق علم العوام والقصص الشعبي وهو بالعموم تصوير لعجائب الكون بأسلوب مسلّ .

لقد زار أبو حامد الغرناطي كثيرا من البلاد في الشرق والغرب،وكان بإمكانه أن،يؤلّف كتابا في وصف رحلته وصفا مفيدا ممتعا،غير أنه أولى اهتمامه إلى العجائب و الغرائب،فجاء كتاباه أقرب إلى القصص الشعبي منه إلى أدب الرّحل،وضمّا مادّة عجائبية تشد الأسماع و تثير الإعجاب،بحيث أنه لم يلتزم أبي حامد الغرناطي في منهجه نظاما معينا أو ترتيبا تاريخيا أو جغرافيا،وإنما جاءت أحاديثه بالتداعي،فكلّ ما يرد على ذهن الرّحالة يدونه،لا سّيما ما يثير الدهشة،ولعلّه في ذلك قد خدم الأدب الشّعبيّ،ويعلن ابن عربي تفوّق معراجه وانطواءه على مستويات معرفيّة عجيبة،وأنه سلك في معراجه منهجا خاصّا، مؤكدا أنّ الإخفاق الذي يحصل في فهم القارئ لأسلوب معراجه ،وهو مسؤولية لقارئ،حيث يبدو أنّ القارئ منزلة من ابن عربي،ومن قوله في ذلك

" فإنه لا يفهم كلامي إلا من رقا مقامي .. "،فمعراجه "معراج أرواح لا معراج أشباح و إسراء أسراء لا أسوار رؤية جنان،لا عنان،وسوك معرفة ذوق ... و وصفت الأمر بمنثور و منظوم،وأودعته بين مرموز ومفهوم،مسجّع الألفاظ ليسهل على الحّفاظ،وبيّنت الطريق وأوضحت التّحقيق،و لوّحت بسّر ـ الصّدي،و رتّبت المناجاة بإحصاء بعض اللّغات..."[1].

و من بعض الكتاب الذين تعرضوا لتأثير أبي حامد واستشهدوا بأقواله القزويني في كلا كتابيه"عجائب المخلوقات"وأثار البلاد أخبار العباد "،و الدميري في كتابه ط حياة الحيوان الكبرى "، فهؤلاء جميعا استشهدوا بأقوال أبي حامدو رواياته،واقتبسوا من "التحفة "، ويمضي كراتشكوفسكي في تحليل " تحفة الألباب

[1] ـ د.نوال عبد الرحمن الشوابكة ، أدب الرحلات الأندلسية و المغربية ،حتى نهاية القرن التاسع الهجري ، ط 1 ، دار المأمون للنسر و التوزيع ـ عمان ،ص 60.

"فيقول"ويورد أبو حامد أسماء رواته بدقة،ويتحدث عن نفسه بضمير المتكلم ،ولهذا يمكن التفريق بسهولة بين مصادر مادته ،وكثيرا مما يورده على لسان الغير لا يمثل في الواقع أهمية ما ، و ذلك لسهولة تصديقه العجائب،واعتقاده فيها. ولكنه،على أية حال يبذل دائما قصارى جهده لتوسيع نطاق معلوماته .

المبحث الثالث : أسلوب أبي حامد الغرناطي في رحلته :

اهتم أبو حامد الغرناطي بوصف أخبار المستعبدات والغرائب والعجائب،أمثال المسعودي والمقدسي،وفي مؤلفاتهم أحاديث الخرافة والمستحيلات،ونجدهم يؤكدون أنهم رأوا ذلك بالعين و ذلك لشدة ولعهم بالعجيب الخارق و فرط إيمانهم بقدرة الله تعالى على كل شيء،علما أن أحاديث أبي حامد الغرناطي حافلة بالغريب وما يخرج عن حد التصديق،ثم نجده يؤكد أنه رأى ذلك بنفسه أواختبره بيده،والحقيقة أن أبا حامد رجل فاضل عاقل بعيد عن الكذب والشعبذة،ولا تفسير لأعاجيبه وتهويلاته إلا بتأثير روح العصر،وقد انعكست حياة أبي حامد الغرناطي الحافلة بالحوادث و الحركة و النشاط والتنقل والتهجر على كتاباته،التي كانت أغرب بكثير من الأعاجيب التي أوردها في مؤلفاته .

وقد قدم أبو حامد الغرناطي وصفا حضاريا عن الأماكن التي زارها و العجائب والغرائب بأسلوب ممتع وجميل ومفيد،فمعظم شخوص رحلته واقعية عاشت في أزمنة وأمكنة لها أبعادها التاريخية و الجغرافيّة،وهي في الحكايات التي يرويها الغرناطي تحمل أسماء وألقابا عرفت بها أثناء حياتها في الدنيا،و أصحاب هذه الشخصيات،منهم من ينتمي إلى السلطة السياسيّة،ومتنهم من كان من رجال الدين،ومنهم من التقى به أبو حامد الغرناطي وعاشره و تحدث معه. وقد أضفى أبو حامد الغرناطي على بعض تلك الشخصيات صفات أسطورية ، رغم انتماء أصحابها إلى الواقع ، حيث أضفى على شخصية أبي جهل صفات تبعده عن دنيا النّاس ، فبعد موته بسنين يظهر في صورة آدمي أسود يشتعل نارا من قرنه إلى قدمه ، و في عنقه سلسلة يجرها خلفه ، و هو يصيح و يطلب الماء [1]،وهنا القارئ يشعر المتلقي بحركة الشخوص و حيوية الأحداث .

[1] ـ أبو حامد الغرناطي ، تحفة الألباب و نخبة الإعجاب، تح ،إسماعيل العربي د.ط ، دار الأفاق الجديدة المغرب ،ص 90 - 110 .

المبحث الرابع : مضامين رحلة أبي حامد الغرناطي في الأندلس :

تضمنت رحلة أبي حامد الغرناطي تدوين كتاب تحفة الألباب ونخبة الإعجاب يتحدث باختصار عن الأرض،المغمور وما تحتويه من أصناف الإنس والجن،والنبات ومعلومات عن بعض جزر المحيط الهندي و عن سكانها وأنواع من حيواناتها وما فيها من عجائب البلدان وغرائب البنيان وما أنفقه في بنائها من المعادن الثمينة،والكنوز النادرة،ليجعل منها بديلا عن الجنّة التي كان يعده بها هود عليه السلام بعد الموت ،ثم اختفاء هذه المدينة في طرفة عين عقابا لشدّاد على طغيانه و كفره .

ويتضح من ذلك أن أبا حامد الغرناطي يحاول أن يضفي صفة الواقعية على حكاية الأسطورية،وذلك بذكر المواقع الجغرافية للأماكن التي يصفها، فمدينة النحاس تظل مدينة أسطورية،رغم ما ذكره الرّحّالة عن موقعها "في فيافي الأندلس بالمغرب الأقصى قريبا من بحر الظلمات "،ويحاول تعزيز هذه الواقعية بأحداث تاريخية وأشخاص تاريخيين،فقد بني المدينة الجن للنبي سليمان بن داوود،ثم عثر عليها عسكر موسى بن نصير،فقد و صف مدينة النحاس بقوله:" أرض واسعة كثيرة المياه و العيون والأشجار والوحوش والأطيار و الحشائش و الأزهار "،و يصف واديا فيها فيقول: " فأنزلنا في واد كثير العيون"، كما ذكر صنم قادس الذي بناه ذو القزوين في مجمع البحرين الأطلسي و المتوسط وسدّ يأجوج و مأجوج [1] وعظمة بنائه ومنعت،وكنيسة القليس،وما خلّفه الفرس من البنيان العجيب مثل:شادروان تستر،وأهرام مصر،ومنارة الإسكندرية، ومنارة عين شمس وغير ذلك من عجائب البنيان. ثم تحدث عن البحار و ما تشتمل عليه من عجائب المخلوقات،وما يخرج منها من العنبر والقار، وما في جزائرها من النفط والنار،فرحلته تعدّ وثيقة تاريخية و جغرافية نادرة عن مختلف البلدان التي زارها،حيث يرسم صورة دقيقة للبيئة الطبيعية و نمط الحيات في تلك الأصقاع :فيصف قصر النّهار و طول اللّيل في الشّتاء في مناطق جنوب روسيا، يذكر أسماء العديد من أصناف الأسماك،كأسماك الخطّاف و الرّعاد . و خلال ذلك كلّه يحدد " آخر حدود الإسلام تحت ثلوج العروض الشماليّة المظلمة ".

[1] ـ أبي حامد الغرناطي ، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب ، تح إسماعيل العربي ، ط 1 ، دار الأفاق الجديدة المغرب ، 1413 ه ـ 1993 م ،ص37 .

و يصل إلى العجائب إلى علوم الكون ،فيصف ظواهر الكون وحركاته وهو مع ذلك لا تخلو عجائبه من حقائق صحيحة و معلومات حقيقيّة ، ففي بغداد جبل النار بصقلية(ثوران بركان أتنا)والبحار الداخليّة التي تتصل بالمحيط الأعظم و تخلو من المدّ و الجزر،وحكايته عن هنغاريا يجمع أخبارا مفصلة من أهل البلاد عن القسطنطينية،تلقى ضوءا على أصل المسلمين الهنغار و أوضاعهم . ومعلوماته عن شعوب القوقاز نالت أهمية كبرى، وكذلك ملاحظاته التي سجلها عن الأقليات المسلمة من المغاربة أو الخوارزميين،حيث يصف وضعهم السياسيّ،وكيف يتظاهر البعض بالنصرانيّة و يكتم الإسلام .. الخ [1].

حيث أن تحفة الغرناطي حظيت باهتمام المستشرقين الغربيين و المستعربين الروس من نهايات القرن الثامن عشر،في الوقت الذي لم تحظ فيه باهتمام يذكر من قبل الدارسين العرب والمسلمين في القديم والحديث،وأول من أعمل النظر في هذا الكتاب هو رينو الذي أبدي تحفظه إزاء القيمة العلمية لهذا الكتاب ن حيث أشار إلى أن المؤلف كان بوسعه أن يقدم خدمات كبرى في محيط الجغرافية و التاريخ الطبيعي.

وقد أفرد أبا حامد الغرناطي في رحلته فصلا ،تحدث فيه عن خصائص البلاد في الأحجار،بقوله:"يقال فيروز نيسابور،وياقوت سرنديب،ولؤلؤ عمان،و عقيق يمين ،وجزر ظفار و مرجان إفريقية ".

فزمن أبي حامد الغرناطي من سلالة السمك الذي أكل منه موسى ويوشع لذلك اكتسب قيمة كبرى عند اليهود و النّصارى،حيث يحملونه إلى بلادهم و يتبّركون به ،وقد أفرد بابا خاصا في الحديث عن البحار وعجائب حيواناتها ، ومن الكائنات الخرافية التي يسرد حكاياتها طائر الرخ ن أو الكائنات التي تخرج من حباب النّحاس في حكاية " مدينة النحاس " فقد ذكر الغرناطي أنّ أحد الرجال فتح منها حبّا فخرج منه فارس من نارعلى فرس من نار،في يده رمح من نار ، فطار في الهواء وهو ينادي يا نبيّ الله لا أعود ـ النبي سليمان بن داوود .. أما الزمن في تحفة الغرناطي،فيغلب عليه ميلة إلى القديم ، فهو زمن مطلق ،وقديم ،فقد يعود الزمن في بعض الحكايات إلى عهد أقوام بادوا مثل قوم عاد وثمود و

1- أبي حامد الغرناطي،تحفة الألباب ونخبة الإعجاب،تح.إسماعيل العربي،ط1،دار الأفاق الجديدة،المغرب،ص103-104

غيرهما ،وقد ينطلق في سرده لبعض الأحداث و الوقائع من زمن محدّد تاريخيا بحيث يوهم بواقعية بعض الحكايات و الزّمن الذي تحدث فيه،ثم سرعان ما يتحول هذا الزمن التاريخيّ إلى زمن لا تاريخي أو أسطوري، ليعود بعد ذلك إلى الزّمن الواقعيّ ، فالزمن عند الغرناطي لا يسير وفق سلسلة متصلة تفضي كل حلقة منه إلى الأخرى ، بل ينطلق من الماضي السّحيق ثم تفقد بعض الحلقات الزّمنية ، ليصل الرحالة إلى الحاضر الذي يعايشه،وهو زمن السّرد كما أن الزّمن في الحكاية الأسطورية لا يترك أثرا في الأشخاص أو الأشياء [1].

ولا شك أن المهمة الكبرى التي اضطلع بها أبو حامد هي إنقاذه لهؤلاء الآلاف من المغاربة ونشره الإسلام بينهم من جديد،وكان من نتيجة ذلك كما يقول:"فعددهم اليوم أكثر من عشرة ألاف،وكان يخطب في يوم الجمعة ظاهرا و باطنا لأن ولايتهم عظيمة ". وقد ارتفعت مكانته هناك "فكان بمثابة الرئيس الروحي للمسلمين "، يدافع عنهم و يتوسط بينهم و بين ملك باشغرد،ومن ذلك أن أبا حامد لما رأى بعض المسلمين يشربون الخمر دعاهم إلى تركه و أباح لهم الجواري و أربعة من الحرائر،وقد استجابوا لدعوته . مما جعل الملك ينكر عليه دعوته ويقول له:ليس هذا من العقل لأن الخمر يقوي الجسد وكثرة النساء تضعف الجسد و البصر ،و دين الإسلام لا يكون على وقف العقل . وكانت إجابة الغرناطي أن النصراني يشرب الخمر على الطعام بمنزلة الماء فلا يسكر،و المسلم إذا شربه فهم يطلب السكر فيذهب عقله وأما النساء فإن أولاد الجنود جنودك وهكذا استطاع أن يمنع المسلمين من الشرب ن وذلك أسلوب في الدعوة نهجه في بلاد بعيدة عن المراكز الإسلامية و تحت حكم غير المسلمين .

[1] ـ أبي حامد الغرناطي، تحفة اللباب ،تح ،إسماعيل العربي ، ط 1 ،دار الأفاق الجديدة المغرب ،ص 119 .

المبحث الخامس :مختارات من رحلة أبي حامد الغرناطي في الأندلس :

وصف سجسين :

" ودخلت البحر إلى بلاد الخزر،فوصلت إلى نهر عظيم أكبر من الدّجلة مرّات أضعافا مضاعفة ، كأنه بحر تخرج منه أنهار عظيمة وعليه مدينة يقال لها سجسين،فيها من الغزّ أربعون قبيلة ،لكل قبيلة أمير على حدة ،ولهم دور كبيرة و في كل دار خركاه عظيمة كالقبّة الكبيرة ،تسع الواحدة مئة رجل وأكثر. و في المدينة من أمم التجّار والغرباء وأولاد العرب من المغرب آلاف لا يحصى عددهم، وفيها جوامع يصلى فيها الجمعة في الخزر،وهم أمم أيضا ،وفي وسط البلدة أمير من أهل بلغار ، لهم جامع كبير يصلّى فيه الجمعة،وحوله أمم من البلغاريين ، و جامع أيضا آخر فيه أمّة يقال لها أهل صوار ، وهم أيضا كثيرون. ويوم العيد يخرجون بمنابر كثيرة،ويصلّي كل أمير بأمم كثيرة ،ولكل أمّة قضاة و فقهاء وخطباء،والجميع على مذهب أبي حنيفة إلا أولاد المغاربة،فإنهم على مذهب مالك،والغرباء على مذهب الشافعي و داري الآن فيهم، و أمهات الأولاد و أولادي و بناتي ..."[1].

وصف رجل من نسل عاد في مدينة بلغار :

" و لقيت من نسل العاديّين رجلا طويلا ، كان طوله أكثر من سبعة أذرع كان يسمّى "دنقي"،وكان يأخذ الفرس تحت إبطه كما يأخذ الإنسان الحمل الصّغير، وكان من قوّته يكسر ساق الفرس بيده ، و يقطع جسده وأعضاءه كما يقطع باقة البقل . وكان صاحب بلغار قد اتّخذ له درعا يحمل على عجلة،و بيضته لرأسه كأنها مرجل ، وكان إذا وقع القتال يقاتل بخشبة من شجر البلوط يمسكها كالعصا في يده،لو ضرب بها الفيل لقتله،وكان خيّرا متواضعا،كان إذا التقاني يسلّم عليّ و يرحب بي و يكرمني،وكان رأسي لا يصل إلى حقوه رحمه الله . و لم يكن ببلغار حمّام يمكن أن يدخل فيها إلاّ حمّام واحدة واسعة الأبواب،وكان من أعجب بني آدم . لم أشاهد قطّ مثله،وكان له أخت على طوله و رأيتها مرارا عدّة في بلغار . وقال لي في بلغار القاضي يعقوب بن النعمان إنّ هذه المرأة الطويلة

[1] - علي إبراهيم كردي ،أدب الرّحل في المغرب و الأندلس،د.ط ، دمشق 2013م ،ص 29 .

العاديّة قلت زوجها،وكان اسمه آدم،وكان من أُوى أهل بلغار ، ضمّته إلى صدرها فكسرت أضلاعه ، فمات في ساعته " .

وصف سعة العيش في بلاد المجر :

"... و تلك الولاية من رومية العظمى،وفيها جبال يخرج منها الذّهب و الفضّة،وتلك البلاد من أكثر البلاد رخاء و نعمة ، يكون الغنم عشرين بدينار، والحملان والجداء ثلاثين بدينار،والعسل خمس مئة رطل بدينار،والجارية الحسناء بعشرة دنانير. و في وقت الغزو تشتري الجارية الجيدة بثلاثة دنانير و اشتريت جارية مولّدة ، أبوها و أمها و إخوتها بالحياة،اشتريتها من سيّدها بعشر دنانير ، بنت خمس عشرة سنة أحسن من القمر،سوداء الشعر والعين،بيضاء كالكافور، تعرف الطّبخ و الخياطة و الرّقم .. " .

ذكر مصر :[1]

رحل ابن الربيع أبو حامد الغرناطي حوالي سنة (500هـ/1106م) واتجه نحو المغرب الأقصى،ودخل سجلماسة ثم انتقل إلى تونس،وركب البحر منها إلى الإسكندرية ، فوصلها سنة 508 هـ ليتصل بعلمائها،ويأخذ عنهم فأخذ عن أبي عبد الله الرازي و أبي بكر الطرطوشي ، ثم انتقل بعدها إلى القاهرة للسّبب نفسه، إذ من المرجّح أنّه كان يعدّ نفسه لرحلة طويلة بضاعته فيها الفقه وعلوم الدين ، لذا يعتقد بأن رحلته الأولى إلى مصر كانت بقصد الاطلاع و التزود بالمعارف الدينية . ثم عاد أبو حامد إلى الأندلس ، ولكنه لم يقم فيها طويلا إذ غادرها سنة (511هـ/1117 م). ولم يعد إليها البتّة . فكانت السنوات الأربع والخمسون المتبقية من حياته ارتحالا مستمرا موصولا برحلته الأخيرة إلى جوار ربّه .

رحلته إلى مصر عبر سردينية و صقلية :

حرص الغرناطي في رحلته الثانية عام(511هـ/1117م) على أن يعود إلى مصر بطريق البحر"فمر بجزيرة سردينية،فصقلية،إلى أن وصل إلى الإسكندرية، ثم القاهرة،ممّا يدل على أنه لم يقض وطره من مصر،فأقام بها زمنّا لينتقل بعدها

[1] ـ علي إبراهيم كردي ، أدب الرّحل في المغرب و الأندلس ،د.ط ، دمشق ، ص 30 .

إلى بغداد. وفي مصر قدم لنا وصفا جميلا عن جامع عمرو بن العاص وآثار مصر و مسجد بناه الخليفة المأمون وسط النيل ووصف الأهرام و التسامح .

ذكر بغداد :

انتقل أبو حامد الغرناطي من مصر مرتحلا ثم وصل إلى دمشق و درس فيها الحديث ثم انتقل إ إلى بعلبك وتدمر ، ثم وصل إلى بغداد في عام (516هـ/ 1122 م). وتذكر الموسوعات أنه قد استقر في بغداد أربع سنوات،ومما لا شكّ فيه أن إقامة الغرناطي في بغداد لا تختلف في مغزاها عن إقامته في القاهرة أو الإسكندرية من حيث السعي إلى الإفادة من علمائها،والأخذ عنهم، فحضر هناك دروس المحدث الكبير أبي العز أحمد بن عبيد الله بن كادش ،وكذلك أبي صادق مرشد بن يحي المديني،وأبي عبد الله محمد بن أحمد الرازي. وكان الغرناطي في بغداد تحت رعاية الوزير الأديب .

رحلته إلى قزوين :

توجه الغرناطي إلى الأصقاع الشمالية بعد أن ناهز الخمسين من العمر ، فمرّ بأبهر إيران ، و يذكر القزويني في تاريخ قزوين أن أبا حامد " كان له معرفة بالعربية و نظم لا بأس به و خط كما يكون " ، و ذكر أنه سمع بها و شمع منه مسند أحمد بن حنبل و صحيح البخاري و التاريخ الكبير للبخاري و الكنى و الأسماء لمسلم بن الحجاج ، و ذكر القزويني أنه وجد له بخطبة :

قد اختلف الروافض في علي كما اختلف النصارى في المسيح

و كلهم على التحقيق يهذي و ما عثروا على المعنى الصحيح

إلى بلاد المجر و البلغار :[1]

انتقل أبو حامد الغرناطي من قزوين متّجها إلى البلاد الروسية ، فوصل إلى سخسين (سجستين) وهي مدينة على مصب نهر الفولغا (الفولجا)عام (525هـ /1131م)،وفي أثناء إقامته في تلك البلاد قام برحلات ثلاث إلى خوارزم أوزبكستان .ثم وصل إلى بلغار روسيا سنة (530 هـ/1135م) ،وبعدها توجه إلى

[1] ـ علي إبراهيم كردي ، أدب الرّحل في المغرب و الأندلس ، د.ط ، دمشق ، ص 31 .

باشغرد التي يرجّح الباحثون أنها في بلاد المجر حيث امتلك فيها منزلا،عام (545 هـ /1150م) الفقيه يحي بن هبيرة الذي عرف بحبّه للعلم ،ورعايته لأهله.

فصول قصار عن خصائص بعض المدن :

الهند : " بحرها دّرّ ، و جبلها ياقوت ، و شجرها عود ، وورقها عطر " .

كرمان : " ماؤها و شل ، و ثمرها دقل ، و عودها بهل " .

الشام : " و الشام عروس بين نساء جلوس " .

مصر : " و مصر هواؤها راكد ، و حرّها متزايد ، تطول الأعمار و تسوّد الأبشار ".

المبحث السادس : بعض من قصائدرحلة أبي حامد الغرناطي في الأندلس :

في وصف مدينة النحاس [1]

و تقبل الملكوت ريعي حيثما فلك البروج يجر في سجداته

أرض بخيرة التي دانت بها جن الفلا و الطير في غدواته

و الريح يحمله الرخاء فإنما شهرين مطلعهما إلى روحاته

كالطود مبهمة بأس راسخ أعيا البرية من جميع جهاته

و القطر سال بها فصاغ مدينة عجبا بجار الوهم دون صفاته

حصن النحاس أحاط من جنباتها وعلى غلو السهم في غلواته

فيها ذخائره و جل كنوزه و الله يكلأها إلى ميقاته

في الأرض آيات فلاتك منكرا فعجائب الأشياء في آياته

[1] ـ أبو حامد الغرناطي ، تحفة الألباب و نخبة الإعجاب ، تح ،إسماعيل ألعربي ،ط1 ، دار إسماعيل العربي ، المعرب ، ص 168 .

مدح الوزير عون الدّين [1]

حـملت بأم العـلوم و أرضعت مـن درّ أخـلاق الـذّكاء الـحـفل
يـبدي حـقائق كلّ عـلم مـشكل فـبفهـمه ظـلـم الـجـهالة تـنجـلي
ولّــى أميـر الـمـؤمـنين أمـوره ليثا قصورا في الخطوب كيذبل
عـونـا لـديـن الله باسط عـدلـه و لوجوده فيض القـراة السّلسل

[1] ـ أبو حامد الغرناطي ، المعرب عن بعض عجائب المغرب ، د.ط ، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، 1999 ،ص 9 .

خاتمة

خاتمة :

و في ختام بحثنا الموسوم بـ : " أدب الرحلة عند المغاربة و الأندلسيين " تخلصنا على عدد من النتائج التي استخلصت مما كتبه الرحالة المغاربة و الأندلسيون من بينهم رحلة العبدري في المغرب وأبي حامد الغرناطي في الأندلس على النحو التالي :

ـ فقد حاولت هذه الدراسة أن تقدّم صورة واضحة قدر الإمكان لأدب الرّحلات الأندلسية والمغربية،وسياقاتها المعرفية والثقافية والاجتماعية و الدينية .

ـ إبراز دور الرحالة في التفاعل الثقافي،ونقل إبداعات الشعوب وثقافاتها إلى سائر أقطار العالم و تبيّن معاني الارتباط الرّوحي و المادّي بين الأندلس و المغرب،و غيرها من البلدان التي زارها الرحّالة.

ـ تعبير الرحالة في وصفهم لمراحل رحلاتهم عن انطباعاته،فاستخدموا التضمينات الدينيّة والأدبيّة،إضافة إلى تأثرهم بعناصر البيئة المحيطة بهم حيث برزت بعض الصور النفسية لدى بعض الرّحالة .

ـ تصدر الرحالة المغاربة والأندلسيين عن العودة إلى موطنهم للإقراء و التدريس وتولي القضاء والإمامة أو الكتابة لدى بعض أمراء المغرب أو الأندلس.

ـ معظم الرحالة كانوا يحملون كتب الرحالة السابقين عليهم للمقارنة و إضفاء الجديد و تصحيح بعض الأخطاء التي وقع فيها من سبقهم .

ـ كان خروج الرحالة المغاربة و الأندلسيين أساسا للحج و الزيارة وطلب العلم فلمعت أسماؤهم و ذاع صيتهم بما نالوه من علم هناك. إضافة غلى كتابتهم لرحلتهم التي توضح ثاقب نظرهم للأمور و تحليلها و حكمهم على الأحداث التي نقلوها بكل أمانة لبعدهم عن التحيز لجانب دون آخر.

ـ المقارنة بين رحلة العبدري و أبي حامد الغرناطي بحيث تعتبر رحلة العبدري عملا أدبيا بامتياز لما تحويه من رواية و تراجم العلماء و الأدباء كمما أنها تتجه إلى الشعر بشكل خاص،فقد كتب نصوصه الخاصة و إلى جانبها جمع قصائد لما أخذ عنهم من فقهاء وعلماء كما أنه انتقد كل ما لم يعجبه مبينا عيوب هذه البلدان، وما يقل فيها من تعبد و زهد و ما قام به من وصف للأماكن التي زارها و رحلته

يسود فيها الإخلاص و التدقيق في الوصف و أسلوبه فيها حي جميل و هذا هو السر في إقبال الناس عليها و النجاح الذي صادفته في الأوساط الأبية ، كما أن له موهبة شعرية قوية و خيال خصب مستمدة من الواقع الاجتماعي و ثراء الثقافة المغربية .

ـ أما رحلة أبي حامد الغرناطي عرف بالذكاء والتدقيق والملاحظة وروح المغامرة و الهمة العالية التي لا تعرف الكلل و الفضول العلمي الذي يدل على رغبة حثيثة في الإطلاع و التنقيب عن الغريب و العجيب في هذا العالم وتحمل مشاق السفر و الترحال والإقامة في بلاد مغايرة متعددة الأعراق و اللغات و الأديان والعادات،وكان يمتلك سوى الإسلام سلاحا في هذه الرحلة الطويلة الشاقة يحمله بين جنبيه ليعلمه و ينشر تعاليمه بين أقوام أكثرهم حديث عهد به ،حيث رحلته تقترب من الخرافة و الغرائبية .

وختاما أسأل الله تعالى أن يكون قد حالفنا التوفيق في إبراز أهم النتائج التي توصل إليها البحث .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا و شفيعنا النبي الأمين محمد بن عبد الله وعلى بله و صحبه وأزواجه أجمعين .

الفهرس

الفهرس

التشكرات

الإهداء

المقدمة .....أ

المدخل:تاريخ أدب الرحلة (الشكل و التأسيس).....4-21

الفصل الأول : رحلة العبدري في المغرب

المبحث الأول :تسمية رحلة العبدري في لمغرب.....24

المبحث الثاني : منهج رحلة العبدري في المغرب.....28

المبحث الثالث :أسلوب رحلة العبدري في المغرب.....33

المبحث الرابع : مضامين رحلة العبدري في المغرب.....38

المبحث الخامس :مختارات من رحلة العبدري في المغرب.....43

المبحث السادس : بعض قصائد رحلة العبدري في المغرب 51

الفصل الثاني : رحلة أبي حامد الغرناطي في الأندلس

المبحث الأول : تسمية رحلة أبي حامد الغرناطي في الأندلس 55

المبحث الثاني : منهج رحلة أبي حامد الغرناطي في الأندلس 59

المبحث الثالث :أسلوب رحلة أبي حامد الغرناطي في الأندلس 60

المبحث الرابع : مضامين رحلة أبي حامد الغرناطي في الأندلس 62

المبحث الخامس : مختارات من رحلة أبي حامد الغرناطي في الأندلس.....64

المبحث السادس: بعض قصائد رحلة أبي حامد الغرناطي في الأندلس 67

خاتمة

قائمة المصادر و المراجع

المصادر و المراجع

القرآن الكريم

أولا :المصادر :

ـ ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار،ج2،بيروت ، 2004.

ـ ابن جبير،رحلة ابن جبير المسماة تذكرة الأخبار،د.ط،دارصادر،بيروت،1959.

ـ ابن قتيبة،عبد الله بن مسلم،ت276هـ ،في بنية القصيدة الجاهلية،الشعر والشعراء،مطبعة بريل،طبع في مدينة ليدن،1902.

ـ ابن منظور ، لسان العرب ،ج11 ، د.ط ، دار صادر ،بيروت ،ت1290.

ـ أحمد رمضان أحمد ، الرحلة الرحالة المسلمون ،د.ط ، بيروت.

ـ جواد علي،المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام،ج7،ط4،دارالساقي،1422هـ 2001 م.

ـ الجيلالي، تاريخ الجزائر العام،ج2،د.ط ،المطبعة العربية،الجزائر1955.

ـ حسن،زكي محمد،الرّحّالة المسلمون في العصور الوسطى،د.ط،دار المعارف، القاهرة 1945.

ـ حسين مؤنس،تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، د.ط،القاهرة .

ـ حسين،حسني محمود،أدب الرحلة عند العرب،د.ط،القاهرة.

ـ الدرعي،ملخص رحلتي عبد السلام الدرعي المغربي،د.ط،دار المقتبس .

ـ رومية وهب،الرحلة في القصيدة الجاهلية،ط 2،بيروت.

ـ سيد حامد النساج،مشواركتب الرحلة قديما وحديثا،د.ط،مكتبة غريب القاهرة 1958 م.

ـ صلاح الدين،المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين في القرون الوسطى،د.ط، دار الكتاب الجديد،بيروت، 1963.

ـ العبدري،ديوان العبدري،ج1،دار النشر المغرب.

ـ علي كردي،أدب الرحل لرحلة والرحالة المسلمون،د.ط،بيروت.

ـ علي محسن عيسى مال الله،أدب الرحلات عند العرب في المشرق،د.ط،مطبعة الإرشاد،بغداد.

ـ عمر فروخ،تاريخ الأدب العربي،ج 6،د.ط،دار العلم للملايين،1983م.

ـ عواطف محمد يوسف نواب،الرحلات المغربية والأندلسية،د.ط،الرياض.

ـ عياض بن موسى،مشارق الأنوار على صحاح الآثار،ج1،دارالنشر المكتبة العتيقة ودار التراث.

ـ أبوقاسم سعد الله ،رسالة الغريب إلى الحبيب ، ط1،دار الغرب الإسلامي،بيروت لباان1993.

ـ محمد الفاسي،كتاب المحاضرات الثقافية الأسبوعية ،ج 1، 196.

ـ محمد بن تاويت،الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى،د.ط، الدارالبيضاء.

ـ محمد محمود الصياد،رحلة ابن بطوطة،د.ط،دارالمعارف للطبع والنشر،تونس 1985م.

ـ المرزباني،معجم الشعراء،ج5،ط2،دار الناشر مكتبة القدسي دار الكتب العلمية،بيروت.

ـ نصارى،حسين،أدب الرحلة،ط1،الشركة المصرية العالمية.

ـ نوال عبد الرحمن الشوابكة،أدب الرحلات الأندلسية والمغربية،حتى نهاية القرن التاسع الهجري،ط 1،دار المأمون للنسر والتوزيع ـ عمان .

ـ ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي،في معجم البلدان،ج 5،ط 2،بيروت. ثانيا :

ثانيا:المراجع

ـ ابن الخطيب،الإحاطة في أخبار غرناطة ،تحقيق محمد عبد الله عنان،ج4،د.ط،د دارالمعارف،مصر 1955.

ـ ابن خلكان،وفيات الأعيان،تح إحسان عباس،ج2،د.ط ،بيروت 1977 .

ـ ابن رشيد،ملء العيبة،تحقيق محمد الحبيب ابن خوجة،ج5،ط1،دارغرب الإسلامي،بيروت لبنان .

ـ ابن فضلان،رحلة ابن فضلان،تح وتعليق سامي الدهان،د.ط،دمشق .

ـ أحمد بن محمد المقري التلمساني،نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،تح إحسان عباس،ج2،دار صادر بيروت،1388ه - 1968م .

ـ الحميري،محمد بن عبد المنعم،الروض المعطار في خبر الأقطار،تح، د. إحسان عباس،ج3،دار صادر بيروت ـ لبنان.

ـ الصفدي،الوافي بالوفيات،تح أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى،د.ط ،دار إحياء التراث،بيروت 1420 هـ - 2000م

ـ أبوحامد الغرناطي،رحلة التحفة،تح،د.ط،إسماعيل العربي،ط1،دارالأفاق الجديدة المغرب،1413 - 1993 .

ـ خالد البلوي،تاج المفرق في تحلية المشرق،تح،حسن السائح،ج2،د.ط،المحمدية.

ـ عبد الملك المراكشي،الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة،تح إحسان عباس وابن شريفة،ج1،د.ط،بيروت .

ـ عبد الوهاب بن علي بن نصير،تاريخ قضاة الأندلس،تر،أبوالحسن البنّاهي،د.ط، بيروت.

ـ عبدري،الرحلة المغربية،تح،محمد الفاسي،د.ط،الرباط، 196 .

ـ كراتشكوفسكي،تاريخ الأدب الجغرافي،تر،صلاح الدين هاشم،ج1،د.ط،القاهرة 1963.

الملاحق

العبدري:أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد ابن مسعود العبدري حيث أن ولادته مجهولة،فإذا افترضنا حين قام برحلته في الخامس والعشرين من ذي القعدة عام ثمانية وثمانين وست مئة كان آن ذاك في الخامسة والأربعين، بدليل قوله عن ابن خميس التلمساني الذي كان ـ حين لقيه في تلمسان ـ في الثامنة و الثلاثين من عمره فتكون ولادته (643هـ/1245م)و أغلب الظن أن وفاته بعد سنة سبع مئة للهجرة ،وهذا قريب مما قدره الدكتور عمر فروخ إذ جعل وفاته سنة 720هـ/1320) .[1]

أبي حامد الغرناطي:محمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن أبي الربيع بن محمد بن علي بن عبد الصمد القيسي ، ولد في غرناطة سنة 473، قام بعدة رحلات وتوفي في سنة 565هـ.[2]

[1] ـ العبدري،رحلة العبدري ،تح علي إبراهيم كردي ،ط2،دار سعد الدين،دمشق،ص9

2- أبي حامد الغرناطي ،تحفة الألباب ونخبة الإعجاب،تح إسماعيل العربي،ط1،دار الأفاق الجديدة المغرب،ص7.

الملخص :

أدب الرحلة من الفنون الأدبية من الفنون الأدبية الذي يهتم بالانطباعات الصادرة عن المؤلف من خلال ما يقوم به من رحلات إلى البلدان على اختلاف الغايات التحدثت من أجلها هذه الزيارات ، و يترك هذا الفن من الفنون لدى القارئ انطباعا على الآثار التي يحتوي عليها المكان الذي يتم زيارته من خلال توثيق ذلك في النص الأدبي لينتج ما يعرف بالآثار الأدبية كما يصف الكاتب في مؤلفات هذا النوع من الفنون الأدبية ما تقع عليه عينه من تصرفات الناس و عاداتهم و ما هم عليه من سلوكيات في التعامل مع من يقابلهم كما يأتي على ذكر الأحوال المعيشية و الأنماط الاجتماعية و الاقتصادية للبلدان التي يتم زيارتها كما كان لأدب الرحلات دور هام في الدراسات التاريخية .

المفتاح : الأدب ،الرحلة الأندلسية ، الرحلة المغربية ، خصائص الرحلات.

Travel literature is one of the literary arts that is concerned with the impressions issud by the author through his trips to countries for the different purposes for which

thise visits took place ; and this arts leaves the reader an

impression on the effects contained in the place visited by documenting it in the literary text to produce what is known as literary artifacts artifacts ;as the writer describes in the literature of the type of literary arts the behavior and habit of people and their behavoir in dealing with those he meets . important in historical studies .

The key : literature andalusian ; moroccan trip ;trip features .